بشر الحافي يخرج من الجحيم

عبد الغفار مكاوي

بشر الحافي يخرج من الجحيم

تأليف
عبد الغفار مكاوي

هنـــداوي

بشر الحافي يخرج من الجحيم

عبد الغفار مكاوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٥ ٣٢٣٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور عبد الغفار مكاوي.

المحتويات

الإهداء	٧
بشر الحافي يخرج من الجحيم	٩
المشهد الأول	١١
المشهد الثاني	١٩
المشهد الثالث	٢٣
المشهد الرابع	٢٩
المشهد الخامس	٣٥
المشهد السادس	٥٥
المشد السابع	٦٥
المشهد الثامن	٧٣
المشهد التاسع	٧٧

الإهداء

إلى صلاح عبد الصبور.
في الذكرى الخامسة لسفرك،
يا أغلى الأحباب.

بشر الحافي يخرج من الجحيم[1]

مسرحية في تسعة مشاهد

الشخصيات

- بشر الحافي
- المرأة
- الخضر
- شيخ التجار
- الأب (الأسد الفاتك) و(الثور الهائج)
- الابن (واعظ ثائر)
- اللحاد
- المجنون
- الصياد
- جنود وحراس – رجال ونساء وأطفال – أصوات مختلفة – صوت من أعلى

---

[1] هو العارف بالله أبو نصر الحارث، المعروف ببشر الحافي (من ١٥٠ إلى ٢٢٧ هجرية)، جمعتُ أقواله وأخباره الشحيحة من كتب التصوُّف المختلفة؛ كاللُّمع، والرسالة القُشَيرية، وكتب الطبقات، والكتاب الذي وضعه عنه المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود.

أما المسرحية فقد كُتبت في الذكرى الخامسة لرحيل صلاح عبد الصبور، وفيها تنويعات على قصيدته الخالدة يوميات «الصوفي بشر الحافي» (من ديوانه أحلام الفارس القديم)، وعلى بعض أخبار هذا الصوفي الزاهد ونوادره وما أُثر عنه من أقوال، ولست بحاجةٍ إلى القول بأن أحداث المسرحية تدور في القرن الثالث للهجرة، وأن أشخاصها من أبناء بغدادَ القرنِ الثالث للهجرة.

المشهد الأول

(نقطة الحرس على حدود بغداد، جنودٌ يقفون على جانبي الحاجز الذي يدخل منه العابرون أو يخرجون، يرى السور الكبير غير بعيد، عليه أبراج الحراسة والمراقبة، وهو يفصل ضواحي بغداد عن الصحراء، أطفال، ونساء يزُرن أزواجهن، يتجولون بين الحواجز والأبراج ويتحدثون مع الحراس، تسمع ضحكات ونداءات يقطعها هتافُ أحد الجنود.)

حارس: انتبهوا يا حراس! شبحٌ يأتي من بعيد.
حارسٌ آخر: بل شبح يجري، أكاد أسمع لهاث أنفاسه.
الحارس الأول: وأكاد أرى أطماره وهلاهيله.
الحارس الثاني: وحذاءه أيضًا؟
الحارس الأول:

تخبرني عيني أن القادم حافٍ وجريح.
أعجف مهزولٌ، تتقاذفه الريح.
فرع من شجرة صبار جفت فيها الروح.

الحارس الثاني: رائع! كنا نُسميك عين النسر، هل لك الآن عين شاعر؟ وماذا أيضًا؟
الحارس الأول: تحقَّق أنت بنفسك، ها هو على بعد خطوتين.
الحارس الثاني: قف يا رجل! توقف!

(بشر يتوقف ويستجمع أنفاسه، يدور حوله الحراس وبعض الأطفال ويتفرسون فيه كأنه جرادة.)

الحارس الأول: من أين؟

بشر: من الجحيم يا ولدي.

الحارس الثاني: شيطانٌ أنت؟ وإلى أين؟

بشر: إلى الجحيم يا ولدي.

الحارس الأول: قبحك الله! إن كان الزبانية قد سمحوا لك بالخروج فنحن لن نتركك.

بشر: دعني يرعاك الله.

الحارس الثاني: ندعك من غير سؤالٍ وجواب؟ من أنت؟ ماذا تريد؟ ما مقصدك، وما عملك؟

بشر: ولماذا تسأل يا ولدي؟ دع للخالق أمر الخلق، دعني يا ولدي.

الحارس الأول: ندعك تخرج؟ كأن الأبواب بلا حُجَّاب، والأسوار بلا حراس، قل من أنت!

بشر: يا ولدي يرعاك الله، ماذا تنتفع باسمي؟ ماذا يملك عبدٌ للعبد؟ دعني ... دعني أخرج.

الحارس الثاني: أخرج، أخرج ... أليس عندك غير هذا؟ تكلم ... اسمك؟

بشر: باسمك يا رب العرش بدأت، عليك توكلت ... اسمي بِشر.

الحارس الثاني: لا يكفي هذا، اسم أبيك وجدك؟ ... كنيتك؟ إذا كانت لك كنية.

بشر: بِشر، أبو النصر الحارث، بشر الحافي، اسمٌ أطلقه الناس عليَّ.

الحارس الأول: الحافي ... حقًّا ... رجلك سوداءُ ومقروحة، أسفل قدمك أسود!

بشر: وذنوبي ملأت قلبي سوادًا فوق سواد؛ ولهذا أخرج يا ولدي كي أتطهر وأتوب إليه.

الحارس الثاني: لن ندعك حتى تُسأل وتجيب ... من أنت؟

بشر: اسمي أخبرتُك به، أما حالي فالله تعالى أعلم به.

الحارس الأول: لا شأن لي بحالك ... عملك ... ما عملك؟

بشر: عملي؟ حاشا لله! هل تبصر عيني أو تسمع أذني إلا بمشيئته — جل علاه؟

الحارس الأول: يبدو أنك شيخٌ ثرثار!

بشر: سامحك الله، مع أن الناس دعَوني بِشر الصامت!

الحارس الثاني: صمتك مثل كلامك لا يُفهم، قل يا شيخ، هل أنت فقير من أهل الله؟

بشر:

مسكين يَطرق بابه.
إن شاءت رحمته قربني منه
وإن شاء جفاني.
ولهذا أبكي يا ولدي طول العمر.
أبكي في الليل وتحت الشمس وفي الفجر.
أبكي في حال الوصل وحال الهجر.
دعني بالله أواصل دمعي وبكائي.
دعني ... دعني ... (يبكي).

الحارس الثاني: اسمع يا شيخ، لن ندعك حتى نعرف منك السر.
الحارس الأول: وإذا نحن تركناك، فهل تتركك الدولة، هل يتركك أولو الأمر؟
بشر: لا يعرف سِرِّي إلا الله ودمعي يشهد ... دعني أخرج يا ولدي.
الحارس الثاني: ستخرج يا شيخ، بشرط ... أن تحكي السر.
الحارس الأول: سر خروجك من بغداد ... أسرار حياتك فيها ... قل يا شيخ.
الحارس الثاني: ابدأ يا شيخ.
بشر: هل عندك جرعة ماء للعطشان؟
الحارس الثاني (يقدم له الماء)**:** ولدينا زاد للجوعان.
بشر (يشرب)**:** حمدًا لله ... في جوف جرابي كسرة خبز تكفيني.
الحارس الثاني: ولدينا في هذا الكوخ فراش لتنام.
بشر: شكرًا يا ولدي ... أطماري البالية تقيني.
الحارس الأول: هيا يا شيخ!
الحارس الثاني: احكِ السر!
بشر: لن يكفي يوم أو ليلة.
الحارس الثاني: ولمَ العجلة؟ أسبوعًا أسبوعين.
بشر: لن أحتاج لهذا.
الحارس الأول: ماذا تحتاج؟
بشر: تحتاج القصة من يرويها، من يشهدها ويشارك فيها.
الحارس الثاني: نحن شهودك، وجنود الحرس جنودك ... وإذا احتجت لأحد ...

الحارس الأول: شيخٌ أو شاب أو طفل.

بشر: وامرأة واحدة ...

الحارس الثاني: ها هي زوجتي، جاءت تزورني اليوم ... يا فاطمة تعالَي ... (تظهر امرأة من خلف السور).

فاطمة: من؟ ماذا تطلب؟

الحارس الثاني: هذا الشيخ ...

فاطمة (تتأمل بشرًا وتتذكر)**:** من؟ أنت؟

الحارس الثاني: أتعرفينه؟

فاطمة: ومن لا يعرف بِشر الحافي؟!

الحارسان معًا: الحافي؟

فاطمة: أشهر رجل في بغداد.

بشر: الشهرة خطأ وخطيئة ... والزاهد من يزهد فيها.

فاطمة: يا أتقى رجل يمشي فوق بساط الأرض.

الحارس الثاني: حافي القدمين.

فاطمة (تسكته)**:** ليتك كنت ظفرًا في أصبع قدمه ... (تتبرك به فيصدها في رفق).

الحارس الأول: فلنبدأ يا شيخ.

الحارس الثاني: هيا هيا ... الصمت ... الصمت (يشير للنساء والأطفال وبقية الحراس، فيتنادون ويلتفون حول الشيخ ... يمسح وجهه وشعر رأسه ولحيته البيضاء بكفيه ويتمتم لحظات، ثم يقول ...)

بشر:

أحد الزهاد،
سكني في بغداد،
نُسكي لله ومحياي،
وللفقراء فؤاد (يغيب في تأملاته).
هذا هو بشر الحافي.

الحارس الثاني: لمَ سمَّوك الحافي؟

الحارس الأول: لا تقاطعه.

الحارس الثاني: أليست هذه هي البداية؟

الحارس الأول: هو حرٌّ يبدأ بالبداية أو النهاية.

بشر: كنت مثلك يا ولدي؛ ألهو لهو الشباب وأضحك ضحك الغافل، يزورني رفقاء الكأس كل ليلةٍ، فنحيا في جنة الشرب واللعب، والأنس والطرب، ثم لا يلبث الفجر أن يطل بوجهه فنعرف أنها جنة الشياطين، وأن الوِلْدان والقِيان غير مخلَّدين، وأغترف من المال الذي تركه أبي، وتزدهر الجنة كل ليلةٍ لتندثر مع كل صباح، حتى دقَّ بابي ذات ليلة عابرُ سبيل (يُسمع دق على الباب، بشر ينادي ويشير إلى المرأة التي تنهض واقفة، ويشجعها حتى تؤدي الدور).

بشر (ينادي): يا جارية.

المرأة: نعم يا سيدي.

بشر: انظري من الباب.

المرأة: في هذه الساعة؟

بشر (صائحًا): قلت افتحي.

المرأة: ومن عساه يكون؟ شرطي، أو سكير، أو شحاذ، أو مجنون.

(تشير إشارة من يفتح الباب.)

بشر: في اللمحة تأتي الصلحة، كان على الباب رجل لم أرَ منه إلا طرف طماره، ولم أسمع شيئًا مما قاله للجارية، ناديت عليها: أنت، من ذلك الطارق؟ قالت الجارية: ألم أقل لك يا سيدي؟ مجنون أو سكير. سألتها: وماذا قال لك؟ قالت: سألني: هل صاحب هذه الدار حُرٌّ أم عبد؟ نهرتُه وصِحت في وجهه: بل حر من صُلب حر ... رد عليها الرجل: صدقتِ، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو. رميت الكأس من يدي، شققت طريقي وسط الندامى والقِيان والسقاة، وأخذت أعدو وراءه حافي القدمين حتى أدركته، قلت له: يا رجل ... أعد الكلام. أعاده عليَّ. مستني الصاعقة فانتفضت، أمسكت طرف طماره وبكيت، مرغت وجهي على الأرض وصِحت: بل عبدٌ يا ربي! عبد! عبد! وتراءى لي في رقدتي على التراب شبح أمير من أهل طريقتنا كنت قد سمعت حكايته، تقدم مني ورَبَت على كتفي وأشار إلى السماء: يا بشر! هذا هو الطريق، امضِ عليه كما مضيت. رفعتُ رأسي إليه وقلت: هل أقدر وحدي يا إبراهيم؟ قال: كنت مثلك يا بِشر، لكن الله أعان. سألته: وماذا فعلت؟ قال: أولى بك أن تسأل ماذا فعل الله! ألهمني أن أترك قصري وأهلي وخدمي ودُنياي،

وهِمت على وجهي في مُدن الناس، حتى ناداني الصوت فلبيت، وجريت إلى الصحراء، ولُذتُ بكهفي وتعبدت.

الحارس الأول: وهِمتَ على وجهك مثله يا بِشر؟

بشر: نعم يا ولدي، هِمت على وجهي حافيَ القدمين، رحت أبكي العمر الذي ضيعت، أبكي حين يخطر لي عدم رضاه عني، وأبكي حين يشرح لي صدري، وطلبت العلم بكل مكان؛ قدمت الشام، وجُزت جبل لُبنان، ثم استقر بي المقام في بغداد.

وملأت جرابي بعلوم الوقت.
وهداني الله، فقُلت: زكاتي أن أهدي غيري
أن أَعلَم وأُعلِّم غيري ما علمت.
وجلست بصحن المسجد أقرأ وأُحَدِّث.
مرت سنوات وأنا أعظ وأهدي الناس إلى الحق.
واجتمع الناس عليَّ.
وتحلَّق حولي الصبية والشُّبان وأصحاب اللحية والشعر الأشيب كالثلج.
حتى فتحت عيوني يومًا فوجدت الناس تُردد اسمي، ففزِعت وخفت.
هل أنا حقًّا بشر الزاهد، أم كذاب يشري الدنيا بالدين؟
هل تاب الله عليَّ وغفر الذنب؟
إن كان الله حباني نِعمًا لا يحصيها العدُّ
فلماذا يمنحني الشهرة والصيت الذائع والمجد؟
وأفقت لنفسي فإذا بالمنحة محنةٌ.
يا ربي!
إني وجهت إليك الوجه كما وجهت القلب.
الشهرة هي حب الدنيا، وأنا غيرك ما أحببت.
ولزمت الدار طويلًا وبكيت.
حتى احمرَّ الجفن، ودميت أشفار العين، بكيت.
صمت وصليت، وصليت وصمت.
ودفنت الكتبَ، فما حدثت ولا علمت.

الحارس الأول: وتلاميذك يا شيخ؟

بشر: طرقوا بابي فسكتُّ.

الحارس الثاني: والعلماء؟ ألم يسأل أحدٌ منهم عنك؟

بشر: هم أيضًا طرقوا بابي فأجاب الصمت، أخذوا يهتفون من وراء الباب:

يا بشر! يا بشر! يا أوحد وقتك علمًا وجلالًا! يا من فُقت أهل عصرك بالزهد والورع! الناس تأس عنك وتدعوك لتَتَبرَّك بك، لا تحرمهم منك! لا تحرمهم منك!

فتحت الباب وأنا أصرخ:

يئست! يئست! يئست!

يا معشر العلماء يا مِلح البلد!

ما يصلح الملح إذا الملحُ فسد؟!

أجيبوني: ومن يصلح العلماء إذا فسدوا؟ صار العلم إلى قومٍ يأكلون به، ويطلبون به الرياسة والقرب من الأمراء، وكيف أعبأ بكم أو أبشُّ في وجوهكم وأنتم تتحاسدون على الدنيا، وتجرحون أقرانكم عند الرؤساء؟ أتخافون أن يميلوا إلى غيركم بسُحتهم وحطامهم؟ وَيْحكم يا علماء السوء! أنتم ورثة الأنبياء، ورَّثوكم العلم فحملتموه ولم تعملوا به، ألم تعلموا أن كل حرفٍ منه يدل صاحبَه على الهرب من الدنيا؟ حسبي أقوام موتى يحيا القلب بذكرهم، عمِلوا ولم يقولوا، أما أنتم فتقولون ولا تعملون؛ ولهذا يقسو القلب برؤيتكم، لا لن أفتح لكم بابًا، لن أطأ لكم مسجدًا، لن أؤمكم في صلاة، إنما أعمل لآخرتي لا لدنياي؛ ولهذا لن أبرح داري، لن أبرح داري.

المرأة: يا شيخ! ومن يطعمك إذا جُعت؟

الحارس الأول: من يسقيك إذا أنت ظمئت؟

بشر: يطعمني من يطعم أفراخ الطير وأمم النمل، لم تكن المعضلة أن أجوع وأعطش.

المرأة: قد تمرض وتُحَم؟

بشر: كانت معضلتي أن أفهم معنى العمل بما أعلم، أن أجيب على سؤالٍ يمضني ويجرعني مرارته ألهذا الجوع خُلقت؟ أبهذا العطش أمرت؟ إنها تشهد بقدرة الله عليَّ، فبماذا تشهد قدرتي التي وهبني الله؟

الحارس الأول: لا أفهمك يا شيخ.

بشر: ولا أنا فهمتُ نفسي يا بُني، رحت أسألها وأنا لا أكف عن البكاء ماذا أصنع بعلمي؟ ولماذا ألوم علماء زماني وأنا لا أعمل شيئًا؟ هل يكفي أن أعلَم وأزهد، أم لا بد أن أزهد وأعمل؟ وماذا أعمل؟ ماذا أعمل؟

المرأة (تمسح دموعها)**:** أبكيتني يا شيخ، وماذا فعلت؟

بشر: أنا أيضًا بكيت يا امرأة، بكيت ولم أفعل شيئًا، إلا أن أتوقف عن كل فعل، حتى كان يومٌ خرجت فيه إلى الطريق وتجولت في السوق، ورجعت لبيتي وأنا لا أحبس طوفان الدمع، وفتحت الباب فإذا به يقف أمامي، لا لا! بل كان يصلي، وانتظرت حتى سلَّم.

الحارس الأول: من يا بشر؟

بشر: من علمني ما كنتُ نسيت.

الحارس الأول: من يا شيخ؟

بشر: الخَضِر.

الجميع: سيدنا الخضر؟

المشهد الثاني

بشر: نعم يا أولادي، كان هناك أمامي، أراه كما أراكم، طويلًا ونحيلًا كنخلةٍ خضراء، عليه ثوب أخضر، حول رأسه عمامة خضراء، من وجهه وجبينه تشع الخضرة وتلف المكان في سحابةٍ خضراء، كان التعب يخترق لحمي وعظمي كأنه منشار نجَّار، وكنت قد جمعت في جرابي من كِسَر الهم والعجز ما تنوء بحمله عشرة جِمال، لم أدرك في البداية إلا أنه غريب اقتحم بيتي دون إذني، انتظرت حتى أتم صلاته وسلم، قلت له.

بشر: كيف تدخل داري والمفتاح في جيبي؟

(يقوم أحد الحراس بعد أن يشير إليه بشر ليمثل الدور، بشر يُلقِّنه الكلمات في البداية حتى يندمج في التمثيل.)

الحارس: ألا تعلم أني لا أحتاج لأبوابٍ ولا نوافذ؟

بشر: لكنك أفزعتني فوق فزعي!

الحارس: ولماذا تفزع يا شيخ؟ أنا أخوك الخضر.

بشر: الخضر؟ في بغداد؟

الحارس: بل في دارك وتراه أمامك.

بشر (جاثيًا على ركبتيه):

مولاي! يا من يخضَرُّ الصخر إذا لمسته قدمك.
يا قائد ذي القرنين إلى نبع الخلد!
احملني معك إلى الصخرة؛ كي أتطهر روحًا ويدَين.
باركني يا مولاي! أغثني! كفكف دمع العين!

الخضر: فليسترها الله عليك.
بشر:

يا من تعرف سر الغيب المستور،
وتقرأ لوح المقدور.
يا هادي السفن التائهة بعرض البحر.
اهدِ سفينة بغداد إلى الخير

الخضر: اجلس يا بشر، أعلم أنك شيخ الزهاد ببغداد.
بشر: ومنك تعلمنا الزهد، لكن الناس ...
الخضر: الناس؟ ماذا يضنيك؟ تكلم.
بشر:

الناس تخون وتغدر.
تعصي الله، وتسدر في الغي وتفجُر.
عادت يأجوج ومأجوج.

الخضر: فأقِم السد! يا بشر الحافي أقم السد!
بشر:

اشتد السيل، فهل يملك فرد مغلول اليد.
أن يقف وحيدًا في وجه المد؟
ليتك كنت معي يا شيخ الزهد.

الخضر: كان الزهد معك ... فماذا فعلت؟
بشر: لأنه كان معي لم أفعل شيئًا.
الخضر:

أنا بالزهد عرفت، وتطهرت، وخلدت إلى يوم يقوم الناس من اللحد.
فلماذا لم تفعل شيئًا؟

بشر:

لأني عارٍ لا أملك غير الزهد.
رحت أجوب الطرقات وأمشي في الأسواق.
وعيون الموتى الأحياء تُحدِّق فيَّ وتلعنُني.
مسكينٌ أنت، وماذا تملك للمسكين سوى العطف؟
هل عندك ثوب للعريان، طعام للجوعان، وستر للبردان؟
أبِيَدِك القوة لتردَّ سياط الطاغية وتنزع سيف الطغيان؟
وترى الأطفال تموت على أيدينا.
لا لبنَ لديك ولا خُبز نراه بيديك.
وبماذا تُحسِن يا عُريان، وأنت جديرٌ بالإحسان؟
ليتك كنت معي يا خضر لتستر خجلي من ضعفي، من قلة شأني.
ليتك جربت هوان العاجز حتى تشعر بهواني!

الخضر: الزاهد يغنيه الزهد عن الناس، أنت غني يا بشر وأغنى مما تتصور.
بشر: ولهذا سخِر مني الجيران.
الخضر: ألم يُغنِك الصمت عن كلامهم؟
بشر: ولم يمنعهم من الكلام.
الخضر:

اهدِ خطاهم لله، فيقوى الأضعف ويلين الأقوى لدعاء الله.
قم يا بشر وخذ بيدهم للإيمان.
وارفع أعلام الحق على رأس الظالم والمظلوم.
فوق القصر وفوق الكوخ، بقلب الحاكم والمحكوم.
قم يا بشر ولا تيأس من رحمة ربك.

بشر: أتراني أصنع شيئًا؟
الخضر: تصنع إنسانًا من أنقاض حطام.
بشر: وبماذا أبدأ؟
الخضر: تبدأ بالنفس، تطهرها.
بشر: النبع بعيد يا شيخي ... لوَّثه سم الثعبان.

الخضر: النبع الأطهر في صدرك. فتطهَّر منه ولا تشرك.
بشر: حاشا لله ... وهل أقدر؟
الخضر: الزهد جهاد يا ولدي.
بشر: جاهدت النفس فلم أقدر.
الخضر:

يا بشرُ اصبِر.
أخرج من نفسك، واترك بيتك.
اعط كنوزك للفقراء وأطعمهم من خبز الحكمة،
وارِوِ الظامئ من ماء الرحمة.
انظر يا بشر ... هناك هناك في جامع مهجور.

بشر: أين يا شيخ؟
الخضر: على بعد أربعين فرسخًا ... مريض يحتضر ولن تخطئه عينك أو قلبك ... أطعمه وخذه على صدرك ... القرية تنتظر وتصبر ... وسيصحو جارك في الفجر وينظر.
بشر: جاري؟ والقرية؟ والجامع المهجور ... أية أسرار تعلنها؟
الخضر: قم يا بشر وأبشر ... قم يا بشر وأبشر.

(يمد يده إليه، يتحرك بشر نحو الباب، يتبعه الخضر ويودعه.)

المرأة: وقمت يا بشر؟
حارس: وذهبت إليه؟
الجميع: زدنا يا بشر ... زدنا يا بشر.

المشهد الثالث

بشر: أسمعتم يا أبنائي عن حال السائر في النوم؟
ولد (يهتف): ... أمي تصرخ في النوم.
بنت: وأبي يتجول ويزور الجيران.
المرأة: اخرسوا يا أولاد ... (الجميع يضحكون).
بشر: قبل أن أضع قدمي على عتبة داري رأيته هناك.
المرأة: سيدنا الخضر؟
بشر: بل جاري في شرفة قصره ... شيخ التجار.
المرأة: عشنا وسمعنا عن صاحب قصر يصحو في الفجر!
بشر:

نظرت إليه على البعد وقلت لنفسي:
لك يا ربي الأمر.
رجلٌ نام على الجمر ورجل نام على زق الخمر!
نظرت إليه، دعوت بدعوة سيدنا الخضر،
أن يمنحه الستر.

المرأة: يا رب الستر ... يا رب الستر.
بشر: وسرت في طريقي؛ بل خُيِّل إليَّ أنني أسير على الهواء، خفيفًا كنت يا أولاد كأني فراشة تهزها الريح، شعرت بأن الأسرار تجذبني وتسحبني من يدي ورجلي، وتحمل بدني كالريشة. إلى أين أذهب؟ على بعد أربعين فرسخًا من بغداد. وأين أجد القرية؟ القرى كثيرة على طول الطريق، وإذا وجدتها فهل أجد الجامع؟ يا رب توكلت عليك، ولك أسلمت الأمر.

كان معي ثلاثة دراهم رزقني بها الله من حيث لا أحتسب، مررت على الخباز فاشتريت خبزًا بدرهم، وعرجت على الشواء فاشتريت لحمًا بدرهَمين، وحلمتهما في جرابي وأنا أقول: هل يليق يا رب أن أدخل على المريض خالي اليدين؟ ومرت لحظاتٍ وإذا بي أتلفت فأرى بغداد ورائي، هذه أول مرة أخرج فيها من أبوابِك، وبدت المدينة كعروسٍ شمطاء، تتملى وجهها في ماء النهر، هل كانت تبكي أم تغتسل وتتطهر؟ شككت في عيني وقلت: انظري يا عيني إلى موقع قدمي، يا عيني أطلتِ النظر إلى باطن نفسي حتى أعشاكِ الضوء، يا عيني أديري البصر إلى وجه الأرض ووجه الليل، واعتادي النظر إلى الظل، داست قدماي على الوحل، وزكمت أنفي روائح القاذورات، قابلت القبح وجهًا لوجه في كل مكان ... لكني مضيت، وهدتني الأسرار الخفية التي تجذبني بخيوطٍ خفية، وانقضت ساعات وأنا أحدق فيما حولي، كرضيعٍ ينظر للعالم أول نظرة، هتف بي صوت: قف! هذه هي القرية! وقفت حائرًا أتلفت بحثًا عن إنسان. القرية ساكنة تتثاءب وتشد غطاءها على نفسها، لا يمكن أن يكون الناس قد ناموا في هذه الساعة؟ هل يعملون ليلًا وينامون نهارًا؟ ما زلنا في العصر، وإذا كنت لا أرى إنسانًا، فأين كلابها وقططها وحميرها؟ دخلت القرية وتجولت، هل جرب أحدٌ منكم أن يتجول في جبَّانة؟ كانت أفظع وأمر على النفس، فالقبور هي القبور، والموتى هم الموتى، أمَّا أن تنظر حولك فترى البيوت قبورًا بلا شواهد، والشوارع حُفرًا وشقوقًا لا يسكنها إلا النمل والخفافيش والبوم؟ استعذت بالله وناجيت القلب الذي ارتفع وجيبُه: قرية أهلكها الله؟ جعل أهلها حجارة وأصنامًا؟ أين ديارهم وحقولهم وحظائر ماشيتهم؟ وبحثت عن الجامع حتى وجدته، لا مئذنة ولا قباب، بل حُطام الجدران والسقف المتداعي وألواح الخشب المتناثرة على جانبي الطريق، وبقايا منبر ومحراب، دخلت وفتشت، لم أرَ أحدًا، رفعت أحجارًا وأخشابًا محترقة، وآثار حصير متآكل، حتى سمعت أنينًا كأنين القطط بين الأنقاض، وتعثَّرت في الأحجار والأخشاب والأطلال حتى وجدته، حطام إنسان يستند إلى جدارٍ مهشم، أسرعت إليه، رفعته قليلًا وأجلسته على الأرض، أسندته على صدري وبدأت أسقيه وأطعمه، اسمك يا عبد الله؟ تأوَّه باسمه.

بشر: ماذا تعمل وحدك؟

الرجل: أنتظرك حتى تطعمَني من خبز الله.

بشر: لماذا تركوك وحدك؟

الرجل: أهلكهم الزلزال.

بشر: وأهلُك؟ أولادك؟

الرجل: انظر واسأل نفسك.
بشر: لا أثر لحيٍّ.
الرجل: ابتلعهم جميعًا، لم يبقَ سواي.
بشر: وكنت تصلي في الجامع!
الرجل: أنا خادمه والواعظ فيه.
بشر: والناس؟ أين الناس؟
الرجل: في جوف الأرض، ومن نجا هرب بجلده.
بشر: ذهب إلى المدينة؟
الرجل: وجاءت المدن إلينا، لكنهم لم يروني.
بشر: لم نسمع عنكم!
الرجل: الله استمع إليَّ.
بشر: ماذا تقصد؟
الرجل: دعوت عليهم فاستجاب.
بشر: ولماذا فعلت؟
الرجل: وإذا أردنا أن نُهلِك قرية.
بشر: أمَرنا مُتْرَفيها.
الرجل: وفقراءها ... لم ينقذهم إلا الزلزال.
بشر: أنقذهم بالموت من الموت؟
الرجل: ألم تأتِك أخبارنا؟
بشر: أنا رجلٌ زاهد ... لا تأتيني الأخبار ولا أذهب إليها.
الرجل: بشر الحافي أنت؟
بشر: وكيف عرفت؟
الرجل: انتظرتك طويلًا، أخبرَني أنك ستجيء.
بشر: من يا رجل؟
الرجل: سيدي وسيدك ... هو أيضًا دعا على أهل قريته، والله استجاب.
بشر: وأنشأ الرجل يبكي ويبكي، لم أدرِ هل تذكر أهله، أم أحسَّ بذنبه فراح ينشِج وصدرُه يعلو ويهبط. أشفقت أن أعيد السؤال وتركته يسترد أنفاسه، وفجأة سمعت خشخشةً ورائي، فزعت وتلفتُّ حولي، لمع صوته وأخذ ينفذ كالسكين في لحم الصمت والظلام.

الجار: معذرة يا شيخ.

بشر: أنت؟

الجار: نعم، ليتك ترضى عني.

بشر: هل تبِعتني؟

الجار: وآمنت بك.

بشر: كنت أعرف أنك تتشكك فيَّ، لماذا مشيت ورائي؟

الجار: النفس أمارة بالسوء، لقد قطعت أنفاسي.

بشر: ومن حملك على هذا؟

الجار: أردت أن أعرف أمرك.

بشر: وعرفت؟

الجار: وصدقت وآمنت ... افعل بي ما تشاء.

بشر: الفعل لله، سقينا الرجل وأطعمناه ... هيا نذهب.

الجار: ألا تنتظر؟

بشر: نظرت إلى الرجل، وقلت: معك الحق، كاد الغضب ينسيني، لا بد أن ننتظر.

بشر: وجلس جاري شيخ التجار غير بعيد عني، مُطأطئ الرأس كالطفل النادم على جريرته، وبدأ جسد المريض يرتجف وينتفض، وعلت حشرجته حتى خلت أن صدره سينفجر، وما هي إلا أنَّاتٍ متقطعة حتى فاضت روحه على يدي، تقدم مني التاجر مَحنيَّ الرأس وقال.

التاجر: ندفنه يا شيخ؟

بشر: ساعدني ساعدك الله ... وحملنا الجسد الهامد إلى حفرةٍ بجوار الجامع واريناه فيها وأهلنا عليه التراب، وقرأنا الفاتحة وبعض الآيات، ونثرنا قطرات الماء عليه وودعناه.

قلت للرجل.

بشر: هيا نذهب، ولا تعد إليها أبدًا.

التاجر: بل ألازمك ولا أتخلى عنك.

بشر: لا حاجة بك لهذا ... الزاهد غريب عن الدنيا والناس.

التاجر: تُغلق في وجهي باب التوبة!

بشر: باب التوبة يفتحه الله على عبده.

التاجر: علمني.

بشر: إن لم يعلمك هذا ... فلن تتعلم ... وأشرت إلى القرية المحترقة التي تمددت ظلالها الداكنة وراء ظهورنا، كانت أنقاضها تبدو من بعيدٍ كعجائز متَّشِحات بالسواد، وخُيِّل إليَّ أنني أسمع النواح والعويل يتردد في الجو الخانق كعِواء كلابٍ محتضرة، قطع جاري الصمت قائلًا.

التاجر: سأثبت لك يومًا أني صادق.

بشر: الله ينظر للقلوب ولا ينظر للأجساد.

التاجر: سأبعث الحياة في هذه القرية، إذا كانت الدنيا قد تخلت عنها فلن أتركها.

بشر: الموت والبعث بيد الله، ماذا تنوي أن تفعل؟

التاجر: سأنفق عليها مالي، حتى لو نَفَد كل ما معي

بشر: ولماذا لم تفعل حين أتاها الزلزال؟

التاجر: كنت سادرًا في ضلالي، ربما كتب الله عليَّ أن أزورها معك.

بشر: أنا كنت في حال الغيبة والغربة ... ولهذا قصَّرت.

التاجر: وأنا مثلك قصرت.

بشر: ضحك ضحكةً خافتة، احتبست في حلقه حين وجدني مشغولًا عنه، كانت القرية المحترقة قد وقفت بيننا وبلعت الضحكة كما بلعت أهلها، وحاولت أن أتصور حالهم وأتسمَّع صراخهم فشعرت بالدوار، واجتاحتني الدوامة، وكدت أحس بأن الزلزال يرتجف تحت قدمي، وأن الأرض تنشقُّ وتوشك أن تغور بي، أيها العالم! أيها العالم! لم أكن أعرف أنك بشعٌ وفظيع، وأنت يا ابن آدم! كيف غاب عني عذابك، وكيف عميتُ عن مصيرك؟ ويا أيها الشيخ الذي دفنته بيدي، هل أحزن عليك أم ألعنُك؟ أحقًّا أنك دعوت عليهم فاستحقوا العقاب؟ هل ظلموا أنفسهم أم ظلمتهم أنت؟ وماذا جنى الأطفال والعجائز والنساء؟ ماذا جنَت القطط والكلاب والدواب؟ أيمكن أن تقتل قرية ولا أُحِس؟ أين كنت يا بشر؟ أين كنت يا بشر؟

اكتشفت أنني أكلم نفسي، وأوشك من الغضب أن أنتزعها من بين جوانحي لأسحقها في قبضتي، وتلفتُّ حولي فلم أجد جاري شيخ التجار، هل أسرعت في سيري فلم يستطع اللحاق بي؟ هل كنت أمشي على الهواء كما تخيلت؟ وتراءت أشباح بغداد من بعيدٍ، فصِحت: وأنتِ أيتها المدينة، ماذا تدخرين لي؟ وخفت أن يعبث شيطان الجنون والغضب بعقلي فسكت، وعاد الشيطان يوسوس لي: هل شاء الخضر أن يعبث بك؟ أكان ما رأيته إشارة أم دعابة؟ والرجل المحتضر، هل رأيته حقًّا وأطعمته وسقيته وأسندته على صدرك؟ هل دفنته بيديك؟

وجارك الغني؟ هل تاب عن ذنوبه، أم كنت تحلم؟ جرفني الزحام فلم أعِ شيئًا، مررت بالأسواق فانزلقت النداءات والأصوات المتشاحنة، والروائح العفنة كما ينزلق الماء العكر على جسدي، وفجأة وجدتني أقف على باب الدار، وقبل أن أُخرج المفتاح من جيبي وأضعه في ثَقب الباب التفتُّ ورائي وهتفت: أيتها المدينة! أيتها المدينة! ماذا تدخرين لبشر الحافي؟ ماذا تدخرين؟

المشهد الرابع

بشر:

لم أنَم الليل بطوله.
حاولت أردد آيات الله.
قمت لأتهجد.
رحت أدق على باب الرحمة واللطف.
أغلق في وجهي الباب بعنف.
حتى بحر دموعي جف.
يا ربي! لمَ يجفوني نورك!
هل خاصمني ملكوتك؟
وسمعت الصوت يقول: قم يا بشر؟ قم يا بشر!
افتح عينيك على العالم وانظر ما فعل الناس.
أغمضتَ العين طويلًا فاذهب للناس.
يا رب! أنا ما أغمضت العين طويلًا إلا لأشاهد نورك.
نوري في كل مكان!
شمسي تسطع في الكون الظاهر والكون الباطن.
فوق الروضة والأكفان.
الدنيا جرحٌ مفتوح يا بشر الحافي.
قم داوِ الجرح وطهره، فدواؤك شافي.
سبحت بحمد الله بكيت وبكيت.

صحت بصمت الجدران وبالأشباح:
أين المصباح المصباح؟
هتف الصوت ففتَّح جرحًا بعد جراح:
فتِّش عنه بقلبك واجل زجاج المصباح.
قم يا بشر وأسرج نورك من زيت الصبر.
يا ربي منك الخير ومنك الشر.
منك سواد الليل ومنك الفجر.
أَفَلَت يا ربي شمسُ العُمر.
والشمعة تخفق واهنة في قبر الصدر.
هل تصمد في ليل العالم لرياح الشر؟
وأنا العاجز يا ربي، وظلام ذنوبي كالبحر؟
جاء الصوت:
يا كَوْنًا أصغر في الكون الأكبر.
يا قطرة ماء تسع البحر وأكثر.
قم يا بشر وأبشر!
لبستُ الأطمار، فتحت الباب.
وضعت القدم على أرض الشارع وهتفت:
يا رب!
نور ظلمة كوني الأصغر من شمس الكون الأكبر!
وأضئ مصباحي الأصغر من نور المصباح الأكبر!
نور المصباح الأكبر.

مضيت إلى السوق كقطٍّ عجوز يخرج من نفقٍ مظلم، ناجيتُ ملائكة العرش أن ترسل لي شعاعًا، أو ريشة تحملني فوق ظلام العالم وحوله، وفتحت عيني، ماذا أرى؟ كل شيء كأنني أراه بعينَي آدم أول مرة، كل شيء يرمقني في دهشةٍ ويسأل: من أنت؟ وماذا تريد؟ أعرف أسماء الشجر والطير والحيوان، وما يدب على الأرض أو يرفرف في السماء، لكني لست بآدم، ما علمت جميع الأسماء، أهؤلاء هم البشر؟ يرمقني الطفل الضامر كجرادة: هل جئت ومعك الخضرة؟ تسألني عين عجوز تبحث في كوم قمامة: هل تعرف معنى الجوع إلى كسرة خبز؟ تلعنني نظرات الشحاذين والمجذومين والعُرج والعميان والمشوَّهين، مسنودين

إلى جدارٍ أو مزدحمين على باب، أو قابعين في الأركان كالحجارة الخرساء، أو ممددين في الشمس كالخنافس المرتعشة، ينظر إليَّ الجميع، ينظرون، لا يتوقع أحدٌ مني شيئًا، قد يفزع إليَّ عابر سبيل فيقبل ثوبي أو يلثم كفي، لكن العيون ترى أطماري وتشفق على حالي، وتنتظر أن يُقعي جسدي بجانبها ويتمدد في الظل، لم أجد الوقت لكي أسأل نفسي، لم تكد عيني ترتد إلى قلبي لتنظر وتتطهر. فوجئت وفوجئَتْ معي الكتل الصماء البكماء العمياء بزلزالٍ يرجُّ أرض الشارع وينحدر من بعيدٍ كنذير الشؤم، فتحت عينيَّ، فتحتهما على الركب الزاحف بالخراب، وانجلت سحابة الغبار عن ركب سباع جائعة أو ثيران مندفعة، يتوسطها الثور الأكبر مزهوًّا كالصاعقة بقلب الليل، مع أنَّا في عز الظهر، والشمس اللاهبة تكوي الأعين وتشوي الوجوه والظهور، ارتعد العجَزة والأطفال، نهض العرج والمشلولون كأنهم يهرعون إلى بركة المسيح، زحف الصغار والكبار وتزاحموا من جوف القمقم، والمارد يصرخ ويصيح: إليَّ إليَّ يا غِربان! أقبل يا ظمآن ويا جوعان! أعطوهم يا حراس أعطوهم، من مالي والمال حرام! ها ها ها! المال حرام في جيب القتلة والأعيان، وتجار السوء الأوغاد، والمال حلال في جيب كريم وجواد، يأخذه من أصنامٍ بخلاء، وينفقه حبًّا في الله على الجوعى والفقراء، ينثره فوق كلاب الأرض المنبوذين التعساء. هيا هيا يا حراس! أعطوهم أعطوهم أعطوهم، صاح رجل: أسد فاتِك، من عانده هالِك. وهتفت امرأة: ينزل من بطن الجبل لينثر ذهبًا، أو ينشر خوفًا في الناس ورعبًا، الأسد الفاتك ... الأسد الفاتك ... وامتدت الأيدي المعروقة تسُد عين الشمس، وتصايحت الجموع كأسراب الغربان العطشى للأمطار، بورك في سيدنا ... بورك فيك وفي مالك يا قارون ... قاطعهم بصوته الأجش كصوت العاصفة يدوِّي وسط الأنقاض: بل قولوا يا سيد بغداد ... فأنا سيد بغداد. قالوا في صوتٍ واحد: سيد بغداد! سيد بغداد! تهبط من رأس الجبل إلينا بالماء وبالزاد. صاح فارتجت الأركان، وانتفض الهواء وارتعشت الظلال والأضواء: ويل للسفلة والأوغاد! أين السفلة والأوغاد؟

وتلفتُّ أبحث عن العَسَس ليلقموا هذا الكافر حجرًا أو يضعوا في يده وساقه قيدًا، لكنهم يختفون عندما تشتد الحاجة إليهم، ورأيت التجار على جانبي السوق يهرعون وأيديهم ترتعش بما حملت؛ نُقلٌ وحبوب وفاكهة وتمر وزيتون، تُحف من أقمشة وستائر وحرير وسجاد، والكل ينحني أمام الصنم المنتفخ بظهر السوق ويلقي بهداياه على الأعتاب، والصنم يضحك ويرتج كبحرٍ هائج؛ المراكب تهتز على سطحه وتنتظر أوامره، والفقراء المشلولون المجذومون يلتفون حوله كالسمك الجائع حول سفينة حوت. وأنا أقف هناك بعيدًا وقفة طفل مذهول. وفجأة ينفذ الثور من الدائرة المحكمة وهو يصيح: أمسكوها! لا

تدعوها تفلت منكم! يُرتَجُ على الآخرين، يُسرع بعض حراسه إليه: من يا سيد بغداد؟ من؟ ويتحشرج زئيره: الكافرة، الناكرة النعمة، لا تدعوها تفلت منكم يا أوغاد! وتنقض الأيدي على امرأةٍ كانت تمر من جانب الطريق وتقف بباب دكان، ممتلئة، بيضاء الوجه في ثوبٍ أسود فضفاض، وتلمع سكين امتشقها الثور وهو يندفع نحوها، والحراس يقدمونها إليه كما تقدم الذبيحة للجزار. الكافرة الخائنة العهد! تتحداني هي والوغد. وتذهل الوجوه الملتفة حوله ولا تجسر على فتح أفواهها! تصرخ المرأة وتستغيث: ويلاه! ويلاه! من ينقذني من هذا الوحش! من ينقذني من هذا الوحش!

الثور: لن ينقذك أمير، لن ينقذك وزير، الكل أمامي يركع ويخاف.

المرأة: الركوع لله وحده، وأنا لا أخاف سواه.

الثور (يلوح بسكينه)**:** ولا من هذه؟

المرأة: هو أقوى منك وأكبر ... وسيأتي من يثأر منك.

الثور: تعنين الوغد؟ أفسدتِه عليَّ.

المرأة: بل هداه الله.

الثور: هل يعقل هذا يا إخوان؟ ابن أمير القتلة والسفاحين ... ابني يصبح جروًا؟

المرأة: أصبح شيخًا، أكرمه الله، وواعظ مسجد.

الثور:

شيخٌ وواعظ؟ يا خجلي منك وعاري منه! ...
يا خجلي منك وعاري منه! ... أين الجرو؟

المرأة: لن أتكلم.

الثور: يتوضأ من زمزم؟ أم حجر الكعبة يلثم؟

المرأة: لن أتكلم.

الثور: السكين ستبقر بطنك حتى تندم!

المرأة: ويلاه! ويلاه!

الثور: أذبحك كما تُذبح شاة!

المرأة: يا مسلمين! يا مسلمين!

الثور: وتمزق أصل لسانك، قولي أين.

المرأة: لن أتكلم! لن أتكلم!

بشر: واندفعتُ بين الصفوف حتى وصلتُ إلى يد الرجل، نظرت إليه ودعوت ربي، مسحت كتفه وهمست في أذنه: إن كنت لا ترى الله فهو يراك، إن كنت لا ترى الله فهو يراك ... وقع الرجل كما يقع الجبل على الأرض، سقطت من يد السكين، تلوَّت كالعقرب لحظاتٍ ثم سكنت، ساد الصمت، كبر صوت، هتفت المرأة:

المرأة: بشر؟ بشر الحافي!

بشر: افسح الحاضرون مكانًا، هللوا وكبروا، اخترقتُ الصفوف ومضيت لحال سبيلي.

المرأة: وقع الثور على الأرض وساد الصمت، والسكين بجانبه فاجأها الموت، أخذ جسده الضخم يتلوَّى وينتفض، حرك رأسه التي ثقلت عليه كالحجر وتطلع للحاضرين، تحشرج صوته قبل أن يقولك صاعقةٌ هذا؟ برق أم رعد؟

رجل (من الحاضرين)**:** بل شيخ من أحباب الله.

الثور: بشر الحافي؟

رجل: شيخ الزهاد ببغداد.

الثور: لا أحد سواه، وقعت هيبته فوقي فوقعت.

المرأة: هل صدقت؟ هل صدقت؟

الثور: يا امرأة السوء ... شمتِّ؟

المرأة: أرسله الله ليثأر منك.

الثور: سامحه الله ... ادعيه إليَّ.

رجل: بشر! يا بشر!

رجلٌ آخر: ذهب كما جاء.

رجلٌ ثالث: ملح ذاب ببحر الله.

المرأة: تقلصت شفتاه وتلوت يداه ورجلاه، مد رقبته وفتح فمه فلم تخرج منه إلا حشرجة محتضر. صاح الحراس.

حارس: سيدنا، سيد بغداد!

حارس: راعي الغربان السوداء.

شحاذ: وراعي الفقراء.

حارس: أين طبيب الحي؟

المرأة (تنظر إليه وتنحني فوقه)**:** لن ينفع فيه دواء.

حارس: أنتِ قتلتِه! أنت قتلته!

المرأة (ساخرة)**:** اترك تلك السكين.

حارسٌ آخر: اتركوها! اتركوها! سأقطع اليد التي تمتد إليها.

المرأة: وأقبل الحارس عليه يحمله، نظر إليه فوجده يبكي، نادى على رفاقه فحملوه معه ... سألوه إلى أين؟ فقلت: الأسد يعود إلى الحفرة ... والزوج الغائب.

حارس: البيت الدافئ والحجرة.

بشر (ينهض ويكمل دوره): كنت قد دخلت داري وأسرجت مصباحي، لم أكد أتهيأ للصلاة حتى دق الباب، قلت صلاتي أولى ورفعت يدي، دق الباب ونادى الصوت.

المرأة: يا بشر! افتح يا بشر!

بشر: فتحت الباب فوجدتها أمامي، شدت يدي وبللتها بدموعها.

المرأة: زوجي يا بشر!

بشر: هذا الثور الهائج.

المرأة: شيخ القتلة يبكي كرضيعٍ جائع.

بشر: هذا الجبار الظالم.

المرأة: هو زوجي يا بشر.

بشر: اذهبي يا امرأة.

المرأة: بل تحضر معي.

بشر: ستر الله عليك ... قلت: اذهبي.

المرأة: وتضن ببركتك عليه؟

بشر: أُبارك ثورًا ... ذئبًا ... أسدًا يفتك بالأنفس؟

المرأة: لا تتركه يموت وفي نفسه حاجة.

بشر: وما حاجته؟

المرأة: أن تلمس وجهه، تمسح بيمينك دمعه، تقبل توبته.

بشر: إن صحَّت يقبلها الله.

المرأة: لن يقبلها إلا منك.

بشر: وعادت تبلل كفي وطرف ردائي بدموعها، أغلقت الباب ورائي وذهبت معها، ولم أكد أدخل من الباب وتقع عيناه عليَّ ...

المشهد الخامس

(شبه حجرة بسيطة تكاد تكون عارية، الزوج ممدد على حصيرة، الزوجة منحنية عليه تسقيه، وبشر يقف أمامه رافعًا يديه بالدعاء.)

بشر: أحيا الله قلبك، ولا أماتك حتى يميت جسمك.
الزوج: أنت؟
بشر: رب أشعث أغبر لا يُؤبَه به، لو أقسم على الله لأبرَّه.
الزوج: ادعه أن يبرَّ بي.
المرأة (صائحة)**:** أرأيت؟ انحلت عقدة لسانه! بارِكه ليشرح صدره.
بشر: البركة من عند الله.
الزوج: ادع لي.
بشر: أسأله أن يتوب عليك من كل ذنبٍ تبتَ منه ثم رجعت إليه.
الزوج: وأنا القاتل وأمير القتلة؟
بشر: وما أصابكم من مُصيبةٍ فبما كسبت أيديكم.
الزوج: ليتها أصابتني وحدي.
المرأة (باكية)**:** ضيعتني وضيعت ابني.
الزوج: هل يمكن أن يغفر لي؟
بشر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.
الزوج: حملي ثقيل يا بِشر.
بشر: الله يخفف عنك.

الزوج: متى يا بشر؟
بشر: أمسُك قد مات، يومُك في النَّزع، وغدًا لم يولدْ بعد، بادر بالعمل الصالح.
الزوج: فات الوقت ... (يتسلل الابن من الباب دون أن يلحظه أحد، يقف جانبًا ويستمع).
بشر: سيطيب السفر إلى الله ... فاشغل وقتك بأعز الأشياء.
الزوج: ما هو يا بشر؟
بشر: هو اشتغالك بالله.
الزوج: خلفي عقبات ... وأمامي عقبات.
بشر:

حقًّا ... حقًّا ... هي عقبات ست (في حماسةٍ شديدة كأنه يتلو من كتاب):
أن تغلق باب النعمة كي تفتح باب الشدة.
تغلق باب العز وتفتح باب الذل.
تغلق باب الراحة كي تفتح باب الجهد.
تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.
تغلق باب الثروة كي تفتح باب الفقر.
تغلق باب الأمل لتدخل من باب الموت.

الابن (يصفق ضاحكًا): فات الوقت! فات الوقت!
بشر: من هذا؟
المرأة: ولدي! ولدي الغائب! (تقبل عليه وتضمه وتقبله).
الابن: فات الوقت! ما جدوى أن تعظ الموتى؟
بشر: أبقاك الله. نحن جميعًا موتى أحياء، نحن جميعًا أحياء موتى.
المرأة: هو أبوك على كل حال ... كاد أن يقتلني في ظهر السوق لولا هذا الشيخ.
الابن: شيخ الزهاد ببغداد ... لمَ لم تتركه يفعل؟
المرأة (باكية): وترضى أن يقتل أمك؟
الابن: يرضيني أو يسخطني، ما قيمة هذا؟ ألم يقتل هو والخليفة وأعوانه مدينة بأكملها؟ ألم يرض كل الناس ويركعوا عند قدميه ويديه الملوثتَين بالدماء؟
الزوج: تظلمني حتى في موتي؟ لم يركع إلا الأوغاد.

الابن: حراسك وجنودك هم حراس الحاكم وجنوده.
الزوج (لبشر)**:** يظلمني حتى في موتي.
الابن: ومن ظلمني وظلم بغداد؟ من جعلها تسقط في دمائها على أقدامكم؟
الزوج: لكني ثُرتُ على الفقر.
الابن: واستعبدت الفقراء.
الزوج: بل أدبت الأوغاد لأعطيهم ... لست الثائر وحدي.
الابن: ثرت وثائر ... كم تمتهن الثورة!
الزوج (متألمًا)**:** دعه يا بشر ... وأتم دعاءك لي.
بشر (داعيًا)**:** ستر الله عليك.
الزوج: روحي في حلقي.
بشر: الله يهون كربة روحك ... سيطيب السفر إلى الله.
المرأة: قل شيئًا لأبيك.
الابن: ما قال الشيخ سيطيب السفر إلى الله.
المرأة (مولولة)**:** سافر ... سافر!
بشر: يرحمه الله ... (يتقدم نحو الميت ... يتمتم بالآيات ويرفع يديه بالدعاء، ينحني عليه ويغمض عينيه، ويمسح رأسه بيده، ويضم ذراعيه إلى صدره، يرجع إلى مكانه وهو ما زال يتمتم بالتسبيح والدعاء).
بشر: وا طول حزناه! زاد البكاء فلا عزاء، واشتد الخوف فلا أمن.
المرأة (باكية)**:** هداه الله ببركتك ... ماذا كنا نفعل لولاك؟
بشر: بل أشرق نور في القلب ففاضت فيه البركة.
المرأة: كان بعيدًا عنه ... فهل سيقربه منه؟
بشر: إنما يريد قرب القلوب لا قرب الأجساد.
المرأة: عاش كوحشٍ ضارٍ، والآن ينام كطفلٍ عارٍ.
بشر: انكشف حجاب الغرور، وانفتحت أبواب الملكوت.
الابن (فجأة)**:** هل يدخل منها قاتل؟
بشر:

القاتل والمقتول عباد الله.
لمَ يقسو قلبك يا ولدي؟

الابن: بل يغضب كالبركان ويهدر كالطوفان!
بشر:

ليس بيدك الميزان.
فارحم يا ولدي؛ كي يرحمك الرحمن.

الابن:

أرحم من لم يرحَم؟
أمي المسكينة.

المرأة:

أمك غفرت يا ولدي كل ذنوبه.
فكر في مثواه الآن.

بشر: والله غفور يا ولدي.
الابن: اسأل بغداد ... فهل تغفر؟
بشر: أمك صفحت يا ولدي.
الابن: ومدينتنا؟ أوليست أُمًّا؟ (يندفع إلى النافذة يشير إلى المدينة الهاجعة في الليل).

انظر يا شيخي الطيب،
ها هي ترقد عارية كالمسخ الأجرب.
ما من أحدٍ فيها إلا وهو معذب.
إن كان القتل عجيبًا فالقاتل أعجب.
انظر للقصر الساطع كالكوكب.
يجلس فيه على عرش القوة وحش مرعب.
كيف أضاء الوحش قناديله؟
من لحم الفقراء، وشحم البؤساء، ودمع المظلوم المتعَب.
انظر يا شيخي الطيب، وانظر واغضب.

بشر: انظر أنت ولا تغضب ... فكر في مثواه الآن كما قالت أمك.
الابن: أمي ... لا أملك إلا بضع دنانير، خذيها للَّحَّاد يجهز نعشه.
المرأة: ليتك بللت دنانيرك بدموع العين.
الابن:

إن جفت عيني ففؤادي يدمع.
هيا انطلقي، فالفجر سيطلع.

المرأة:

أبقاك الله.
ادع له يا شيخي الطيب.
كلمه حتى أرجع ... (تنصرف).

بشر:

ولدي.
إن كنت تعيش بعيدًا عن هذا البيت.
فأين تعيش، وماذا تعمل؟

الابن:

أهرب من بيت ليس بيتي.
من وطنٍ ليس بوطني.
من بلدٍ صارت غابة.
أطلق فيها الكلب كلابَه،
والذئب ذئابَه.

بشر:

ويلي من غضبك!
توشك أن تحرقني نارك.
ماذا تعمل؟

الابن: أجهد أن أوقظ بعض الأحياء الموتى.
بشر: أين؟
الابن: في جامع دجلة.
بشر: واعظ؟
الابن:

أحيانًا شاعر.
دومًا ثائر.
ولهذا عشت غريبًا منذ صباي الباكر.

بشر:

بدأ الإسلام غريبًا،
ويعود كما بدأ غريبًا.
طوبى للغرباء.

الابن:

أسأل نفسي حين يطل نهاري.
حين يجن عليَّ الليل:
هل أصلح نفسي؟
أم أصلح ما أفسده غيري؟

بشر: طوبى للغرباء إذا فسد الناس.
الابن: وإذا فسد الأب؟
بشر: لا تقسُ عليه.
الابن:

كم هو قاسٍ.
حتى بعد الموت فظيعٌ قاسٍ

(يقترب من جثمان أبيه، يتحسسه في خوف، ويضع وجهه بين يديه.)

الابن:

الأسد الفاتك،
رجلٌ هالك.
آه ما أقسى الموت!
ما أقسى الموت! (ينشِجُ بالبكاء).

بشر: ادعُ له بالرحمة، وانسَ جروحك.
الابن (ينهض ويقترب منه في غضب)**:** لا! لا ما أنا ناسٍ!
الابن (يقطع المكان جيئةً وذهابًا)**:**

كنت كأني القابض بيديه على الجمر،
أحيا بين الناس غريبًا،
في أرض الغربة،
وأنا بين اثنين.
وأحلى الأمرين مُر؛
أن أصلح نفسي عند فساد الناس.
أو أصلح ما أفسده الناس.

بشر:

إنك رجلٌ صالح!
إن يُرِد الله بعبدٍ خيرًا
يفتح باب العمل عليه،
ويغلق باب القول.

الابن (مستمرًّا)**:**

رجلٌ صالح!
في الحالين أعيش ذليلًا مقهورًا،
وأواجه جيشًا من فقراء مقهورين.

أحلم بالثورة ... أخطب ... أغضب،
ثم أعود فأشنق غضبي
في حبل الصمت.
أتلفت حولي.
لا أعوان ولا أنصار،
كأني بين الناس حمارٌ ميت.
أنظر بالقلب إلى ما بين يدي،
فيَعشى بصرُ فؤادي،
بصر عيوني؛
ولهذا أستوحش منهم،
وكأني حي وسط الموتى.
مفتونون بحب الدنيا،
وبتعظيم الرؤساء،
بالشهوات وبالشبهات،
وبالأموال وبالأقوال.
كانوا إخوانًا متحابِّين،
فصاروا أعداء متعادين.
كتلٌ صماء،
تنحدر إلى هاوية،
لا يسقط فيها الحجر ولا الوحش الملعون.
أسألهم من فوق المنبر:
هل أنتم أُمَّةٌ خير الخلق؟
هل وجَّهتم أوجهكم للحق؟
هل صليتم لله وصمتم،
أم للقابع في القصر العالي،
بين الجارية وبين الزِّق؟
همَج عُرج،

وذئاب مختلسة،
أُسْدٌ ضارية،
وثعالبٌ جارية،
وكلابٌ نجسة.

بشر:

اسكت يا ولدي ... استغفر،
لا يلعن خلق البارئ
إلا من أسكره حب الدنيا،
فاضطربَ على موج الكفر.

الابن:

حاشا لله!
إني أَسكر من حب الله،
ولست أفيق بغير لقائه،
ما أكثر ما كنت أسائل نفسي
حين أصلي في جوف الليل،
ودمع عيوني ينهل،
وصوتي يشرق بدعائه:
لو كان بقلبي ذرةُ حُبٍّ للدنيا،
ما صحت لي سجدةٌ.
يا ربي، أخرج حب الدنيا من قلبي،
حبب فيَّ قلوب الضعفاء،
أسكني بين الفقراء،
اجعلني ممن يعمل بالعلم،
ويقرن ذل الطاعة
بالصدق وبالحلم.

بشر:

تلكُم هي حال الحب؛
ليست في تعليم الخلق؛
بل موهبة من عند الحق.

الابن:

هو همي،
لم أُشغل عنه بسواه.
ومنه فِراري وإليه،
لن يشغلني عنه نعيم الجنة،
كيف ستشغلني الدنيا عنه؟

بشر:

وإذا أسكنت الدنيا قلبك،
هربت آخرتك منه.

الابن: لكن مع هذا ...
بشر (مقاطعًا)**:**

اسمع يا ولدي
قول أبي سليمان:
الدنيا تهرب ممن يطلبها،
تطلب من يهرب منها.
فإذا أدركت الهارب جرحته،
وإن أدركها الطالب قتلته.

الابن:

لكن مع هذا بقي سؤالي
ينتظر جوابًا يرحم حالي:

إن نحن تركنا الدنيا،
نحن الفقراء وأحباب الفقراء،
فلمن نتركها يا شيخ؟
أولم نُستخلف فيها؟
أولم يُلقَ على كاهلنا
عبء أمانتها،
لما أشفق أن يحملَها
الجبل وأشفقت الأرض؟
أوليس الوارث
هذا الإنسان؟
ومن الإنسان؟
إن لم يكن العارف
تستيقظ فيه عين القلب،
وتغفو عين الجسد
فلا يبصر غير الرب.
لمن نتركها يا شيخ؟
للأوغاد الأشرار؟
للكذابين النهابين؛
كلاب السلطة،
وذئاب الخسة والحطة،
وطغاة الدين والدنيا،
المسعورين على الدرهم والدينار؟
يا شيخي ... بك أقسمت عليه.

بشر:

جل علاه!
هو يهديني للخير،
ويؤنس روحي،
وهو البلسم وشفاء جروحي.

الابن:

بك أقسمت عليه.
هل تقبل قسمي؟

بشر:

لا ... لا تفعل،
فأنا لا أعرف منزلتي منه،
أنا لا أعرف منزلتي منه،
لست كمعروفٍ الكَرْخي،
رضي الله تعالى عنه،
ومكاني الآن أمامك،
لا تحت العرش ولا بين يديه.
لا أدري إن كنت قريبًا منه،
أو إن كان سيبعدني عنه.

الابن:

أوترفض أن أقسم بك؟
فبمن أقسم أو أتقرَّب منه؟
بالراقد في بركة دَم؟ ... (يشير إلى جثة أبيه، ويقول في سخرية):
بالأسد الفاتك، والثور الهالك؟
بالصقر الجارح،
والوحش الجائح؟
عاجله السم
وأرداه السهم!

بشر:

دعه لمن بيديه الأمر،
لن تنفعه يا ولدي،

لن يأتيه ضررٌ منك،
قد أسلم لله زمامَه.

الابن:

وأنا أسلمت نواصيَّ إليه،
يا من تطَّلع عليَّ إذا ليلي جن،
وأنا في الخلوة أذكر اسمك،
وأناجيك بدمع العين،
أسفِر لي عن طلعة شمسك،
أدخلني روضة قدسك،
ألهمني أعمل ما أعمله لك،
أترُكُ ما أتركه لك،
لا يملأ قلبي لا يشغله غيرك،
وإذا ثُرت فعذري أن الثورة
من أجل عُلاك.
وإذا عثَرت قدمي أو قدم صحابي،
فالقصد رضاك.
هل يرضيك خراب الروح،
وموت العقل،
وذل النفس؟
هل تقبل عينك أن تطَّلع
على هذا القُبح،
وهذا البؤس؟

بشر:

لن يَنشِل هذا البلد من البؤس،
إلا تطهيرُ النفس.
ذلك هو دربي لا أعرف دربًا غيره.

الابن:

لا ... لن يصلح بغداد،
إلا جُهد وجهاد.
لن ينقذ هذا البلد الجاحد،
إلا أن يُجتث الرأس الفاسد،
والفرع الفاسد.
تفصله ضربة سيف، أو ضربة فأس.
لن يصلح هذا البلد سوى الثورة.

بشر:

ما الثورة؟
الثورة تحرق، والثورة تصعق.
تكسر قيدًا كي تضع قيودًا أوثق.
الثورة حُلم يا ولدي،
والحالم أخرق.

الابن:

بل راعٍ فينا مسئول،
واتَتْه الحكمة والقدرة
أن يخطو فوق الصحراء،
فتخضر النبتة والشجرة.

بشر:

والثائر يصبح جلادًا،
والثورة فرسًا أو مُهرة.
ويصير الثوار جرادًا
يلتهم الأخضر والخضرة.
لا ... لا ... لا.

لن ينشل هذا البلد من البؤس،
إلا تطهير النفس.

الابن (رافعًا صوته):

لن ينشل هذا البلد من الظلم،
إلا تطهير الحاكم والمحكوم،
وتطهير الحكم.

بشر: ومَن الطاهر عندك؟ مَن طهَّره؟
الابن:

شرع الله الحق،
نار الحرية والصدق.

(في هذه اللحظة يدخل جنود فتحوا الباب عَنوةً، في أيديهم سيوف وسلاسل وقيود.)

أحد الجند: الحرية والحق؟
الابن: قلت الحرية والصدق.
الجندي:

الصدق أو العدل أو الحق،
أهنالك فرق؟
ما الفرق؟
قل ما شئت لمولانا.

الابن: من مولاكم؟
بشر: لا نعرف إلا مولانا الحق.
جنديٌّ آخر: أنت هنا يا بشر؟
جندي ثالث:

بخ! بخ! بخ!
وقع الصيد، فأحكِم إغلاق الفخ!

بشر:

الأمر لمولانا الحق،
هو يلهمنا الصدق.

جندي:

عدنا للحق وللصدق؟
هيا ... هيا.
مولاك ومولانا،
من بيديه الأمر،
يطلب أن تحضر معنا
أنت وصاحبك الحافي،
بشر أبو النصر.

الابن: ما التهمة؟ لن أتحرك!
جندي:

هيا ... هيا.
ما هذا الحظ؟
لا تتعبنا مُدَّ يديك،
وكذلك أنت،
مد يديك ورجليك.

بشر:

لا تتحرك يا ولدي،
لا تأبَه له.

جندي:

قالوا رجلٌ مجذوب طيب،
من أحباب الله،

ولا يعرف غير الحب،
هيا ... هيا.

الابن: قلنا لن تتحرك.
جندي: من لا يتحرك يهلك.
المرأة: ما هذا؟ من أنتم؟
الابن: حراس الشر.
بشر: وجند الشيطان.
جندي:

ما هذا يا بشر؟
أيكون جزاء الإحسان
سوى الإحسان؟

(يستل السيف من غِمده، وكذلك يفعل بقية الجنود.)

(تدخل المرأة مع اللَّحَّاد الذي ينطلق باحثًا عن جثمان الميت، ويطوف على الحاضرين واحدًا واحدًا وهو يقول.)

اللحاد: أين الميت؟ أين الجثة؟ هل هو هذا؟ هل هو هذا؟ أم هو هذا؟
المرأة: هنا يا رجل!
جندي: أعمى أنت؟
اللحاد: معذرة يا سادة، فكلانا حيٌّ ميت ... لا يبقى غيره، من يعرف حيًّا من ميت؟ من يعرف حيًّا من ميت؟!

جندي (يركله بقدمه بعد أن توقف عنده).

اللحاد:

لا دائم إلا وجهه،
لا دائم إلا وجهه.

(وينكب على عمله وهو يردد بعض الآيات.)

المرأة (تلتفت إلى الجنود): ماذا تبغون؟ من أرسلكم؟
جندي:

في العادة يرسلنا الله،
أو الشيطان،
قاضي الشرع، أو المحتسب أو السجان.
أما الليلة فخليفتنا،
يرعاه الله،
لمح النار،
وشمَّ دُخان.
سأل العرَّاف عن الطالع
والميزان.
قال حَذَار!
فهي الثورة والثُّوار!
هاتوا القيد مع السجان.

المرأة:

القيد مع السجان؟
أدِّبهم يا بشر،
ازجرهم،
واسكب في الآذان
ما أدبت به المسكين،
الميت في الأكفان.

جندي (بوقاحة):

هيا يا بشر تقدَّم،
واسكب في الآذان (يشرع الجنود آذانهم ضاحكين).

بشر (يتقدم منهم، يمسك واحدًا من كتفه ويهمس في أذنه فيغرق في الضحك):

إن كنت لا تراه
فإنه يراك،
فإنه يراك ... (يزعق فجأة):
ليسقط هذا القيد!

جندي: ومن أدراك؟

نحن نراك،
ونحكم قيدك.
نحن نراك.

جندي آخر:

وإذا شئت
شددنا القبضة،
فوق قفاك (يضحكون بشدة).

بشر (يائسًا منتظرًا المعجزة):

إن كنت لا تراه،
فإنه يراك.
فإنه يراك.

الجنود (وهم يتمون وضع القيود في يدَي بشر والابن ويتحركون نحو الباب):

ونحن نراك.
نحن نراك.

بشر:

ربي! لمَ يجفوني نورك؟
هل نفد الزيت بمصباحي؟

سبحانك ربي! قد قدرت وقدرك سر،
أن أصرع وحشًا في الظهر،
ويصرعني وحش في الفجر.
إن كنت فتحت بقلبي جرحًا
فوق جروحي،
فالطف يا رب بعبدك،
واكشف عنه الضر،
هيا يا ولدي.

المرأة:

هيا؟ وإلى أين؟
ولدي ... ولدي!
بشر ... بشر!
ربي! هل يفجعني زوجي في الليل،
ويتركني ولدي في الفجر!
ولدي ... ولدي!
بشر ... بشر!

(يخرجون بينما يتردد نداؤها وهي تندفع مسرعة خلفهم.)

اللحاد (مُنكَبًّا على عمله)**:** لا دائم إلا وجهه.

لا دائم إلا وجهه.
من يعرف ميتًا من حي؟
من يعرف حيًّا من ميت؟!

المشهد السادس

(حجرةٌ عارية الجدران، إلا من أدوات التعذيب المختلفة والأسلحة المتنوعة: بلطة وساطور تخثر عليهما الدم، وكلابات وقيود وسلاسل حديدية صدئة، بشر يدخل مستعيذًا بالله، يتلفت حوله وينظر إلى الجدران، يهز رأسه ويستعيذ بالله ثم ينظر أمامه فيفاجأ بقاعدةٍ خشبية غليظة، كأنها جذع شجرة ضخمة، أو كأنها سندان، يلاحظ سيفًا معلقًا بجوارها وحبلًا مُغبرًّا وأدوات تعذيب مختلفة — من مساميرٍ ومشدات وكلابات ... إلخ — يدرك أنها لقطع الرءوس، يتجول في المكان لحظات، ثم ينتحي ركنًا ويجلس على حجر.)

بشر:

ربي!
وجهت الوجه إليك.
لا تحرمني نورك،
لا تبعدني عنك.
ربي إني خائف!
قربني منك! أعطني كأس محبتك، وقربني منك!
(يخفي وجهه بين كفيه ويهتز صدره وكتفاه).
أي مكان هذا أو أي زمان؟
قفص هذا أم سجن؟
وإذا كان هو القفص فأين الحارس؟
إن كان السجن فأين السجان؟

ربي أين شموسك ونجومك؟
أين مصابيح حنانك؟
نوِّر عيني بحق جلالك،
يا منان ويا حنان.
(الحجرة تضاء شيئًا فشيئًا).
شكرًا يا رب العرش ورب النور ورب النار!
شكرًا يا صاحب هذه الدار!
(يغيب في التسبيح والحمد والثناء).
يا نفسي الحزينة،
حمامتي الرزينة،
عصفورتي المسكينة،
حبسوك أخيرًا في هذا القفص الشائك؟
أين الصياد؟
أنا لا أبصر غير شباك وشباك،
لا أبصر غير سلاسل وقيود،
وسيوف وسهام وحراب ودماء، وبقايا أسلاك.
أتؤدِّب عبدك يا مولاي؟
هذا حقك وعليَّ الطاعة.
غفرانك أكبر من ذنبي،
والدنيا كانت خداعة.
لكن يا ربي علمني،
واسكب في عقلي أنوارك،
لا تترك ظلًّا من شك
ينهشني، والطُف وتدارك.
نورًا يا ربي وأعني،
واكشف يا ربي أسرارك!

(تُسمع أصواتٌ مختلطة، خافتة في البداية كالبكاء والأنين، ثم مرتفعة بالتدريج كأنها عاصفة مدوية بالعويل والصراخ والاستغاثة، تعلن عن عمق الألم وتصدر

من عمق الجراح، وهي أصوات متداخلة، لا يمكن أن تأتي من مخلوقٍ واحد، وإنما تتصادم فيها أصوات فرقعات سياط، وضربات على اللحم والعظام، مع عواءٍ بشري فظيع، يتجاوب معه عواء كلاب ودمدمة حيوانات كاسرة غاضبة، ينزوي بشر في ركن وهو ينتفض.)

بشر:

ربي!
إني خائف!
إني خائف!
ربي!
هل هذا ولدي المسكين الثائر،
ولدي العارف؟
يا رب العرش سألتك شد الأزر،
ومد له في حبل الصبر،
وقوِّ القلب الراجف.
ربي لا تحجب عنه ضياءك،
لا تمنع عنه عزاءك،
أسبِل يا رب عليه غطاءك.

(يستمر صوت البكاء والعويل والصراخ والاستغاثة من كل الجهات، يواصل بشر دعوته وتمتماته، ويزداد ارتعاشه، يشرع في الصلاة فيفاجئه صوتٌ أجشُّ يتنزل من أعلى، الصوت يصدر عن مكبر ... «ميكروفون» يضخمه ويضفي عليه رهبة تزيد من رهبة المكان.)

الصوت: بشر! بشر!
بشر: من؟ ... من يدعوني؟ من؟
الصوت: قاطعتنا يا بشر.
بشر: وهل وصلتُك يا هذا من قبل؟ أنا لا أتصل بغير الله ولا يشغَلُني عنه سواه.
الصوت: جل علاه ... جل علاه ... لكنك استوحشت منا.

بشر: من عامل الناس بالصدق استوحش من الناس.
الصوت: أيا أتقى رجل في بغداد.
بشر: يغفر لي الله ثناءك، يعفو عن سخريتك!
الصوت: الناس لا تراك إلا وحدك، فإذا أقبلوا نحوك وليت فرارًا منهم.
بشر: غنية المؤمن غفلة الناس عنه.

(يتلو بيتًا من الشعر وينغمه.)

آنسني الله به وحده،
برمت بالناس وأخلاقهم،
فصرت أستأنس بالوحدة.

الصوت: بعض الناس يحتاج إلى نصحك.
بشر: كيف أداويهم وبي داء؟ كيف أبصر موضع الداء والدواء إن لم يُعنِّي بمعونته؟
الصوت: يا أطهر رجل في بغداد.
بشر: معذرة ... إني أتطهر.
الصوت: يا أصلح الصالحين من أهل زماني، أسألك فهل تشفيني بجوابك.
بشر: منه شفاء القلب ومنه دواء الجرح، قل يا سيد.
الصوت: من أنت؟
بشر: أنا؟ غفرانك ربي! أيكون وجودي إلا بوجودك؟ اسمع يا هذا، إن فنائي أن أتلاشى في الحق، وبقائي أن أحضر وأكون مع الحق.
الصوت: ليتك تروي ظمئي، من أنت؟
بشر: ما تقول في مَن القبر مسكنه، والصراط جوازه، والقيامة موقفه، والله مُسائله، فلا يعلم إلى جنةٍ يصير فيهنى، أم إلى نارٍ فيعزى (يبكي).
الصوت: أردنا أن نعرف من أنت، فعرفنا أنا قصرنا في حقك ... يا شيخ.
بشر: ومن أنت؟
الصوت: لم أفرغ من أسئلتي.
بشر: اسأل يرحمك الله.
الصوت: أين تنام؟
بشر: أنام تحت رواق الهم والقلق.

الصوت: ماذا تلبَس؟
بشر:

قطع الليالي مع الأيام في خلق،
أحرى وأجدر بي أن يقال غدا.
إني التمست الغنى من كفٍّ مختلق.

الصوت: رضيت بالقناعة.
بشر:

إن القنوع غني،
ليس الغنى كثرة الأموال والورق.

الصوت: ومن أين تأكل؟
بشر:

من حيث تأكلون، ليس من يأكل وهو يبكي
مثل من يأكل وهو يضحك.

الصوت: وخبزك؟ من أين تحصل عليه؟
بشر: إني لا آكل من غلة بغداد، ولا من طعام السواد، يرزقني من يرزق أسراب النمل ويطعم أفراخ الطير ... وما زلت أهتف بكل من يريد أن يتكلم معي:
يا ولدي! لا تعرض لحمك للنار! يا أخي! انظر خبزك من أين هو! ثم تكلم! وأقِلَّ من معرفة الناس.
الصوت: ليتك قللت من معرفتهم، أصحيحٌ أنك اعتزلتهم يا بشر؟
بشر:

لم يبق لي مؤنس فيؤنسني،
إلا أنيس أخاف من أنسه؛
فاعتزل الناس يا أخي ولا
تركن إلى من تخاف من دنسه.

الصوت: ألا ترى في الأحياء أحدًا لم يدنس؟

بشر:

إنني أتبع آثار القوم الذين سبقوني للإيمان،
أجعلهم نصب عيني، آنس بهم في الخلاء،
أجالسهم فأزهد في مجالسة الموتى.

الصوت (غاضبًا)**:** وهل أنا ميت أحكُم في موتى؟

بشر (يفاجأ ويرتجف لحظة، لكنه لا يتردد)**:** مولاي! ما إلى هذا قصدت، إنما أنت في محل موتى، ومقابر أحياء ماتوا عن الآخرة ... حسبك أقوامٌ موتى يحيا القلب بذكرهم، كم من أحياءٍ يقسو القلب برؤيتهم.

الصوت: وهؤلاء الأحياء ... ألا تستثني منهم أحدًا؟

بشر:

هؤلاء هم أهل زماني، لا أبالي من تركني منهم ولا آسى على فقدهم.
أعلم أن حظي في بعدهم أوفر من حظي في قربهم.

الصوت: حقًّا ... لم يخطئ من أبلغني ...

بشر (مستمرًّا)**:** إني أحذر أهل زماني؛ إن جالستهم لم أنجُ من الفتنة، وإن جانبتهم لم آمن بلاءهم. ولَلموتُ في العزلة خير من الحياة معهم.

الصوت: إن كنت زهدتَ في الدنيا، فهل زهدت فينا؟

بشر: إني لأستحي أن أطلب الدنيا ممن يطلبها.

الصوت: ألا تخافنا يا بشر؟

بشر: لا أطلب الدنيا إلا ممن بيده الدنيا.

الصوت: الناس تخافنا وترجونا.

بشر: وأنا لا أخاف من كلمة الحق عند من يُخاف ويُرجى.

الصوت: ألا تخشى أن نؤذيَك؟

بشر (يتلفت حوله خائفًا. ينهض قليلًا ويتحسس بعض أدوات التعذيب المعلقة على الحائط، يتماسك ويعود إلى جلسته ثم يقول)**:** إذا أحب الله أن يتحف العبد سلط عليه من يؤذيه!

الصوت: ألا تتوقع منا خيرًا؟

بشر (يتلفت حوله ثم يضحك ويقول): لا خير فيمن يؤذي، ولا خير فيمن لا يؤذي (ترتفع أصوات التعذيب التي كانت قد خفتت قليلًا أثناء الحوار السابق، تعلو دمدمة العاصفة المختلطة الأصوات).

الصوت: وإذا كان الجميع يخافونه؟

بشر: عليهم ألا يخافوا سواه.

الصوت (محتدًّا): ولكنه لا يخاف! قلت لك لا يخاف!

بشر (غاضبًا): ألا تخاف مَن بيدِه حياتك وموتك ومعادك؟ وهب أنك لا تخاف، ويحك! ألا تشتاق؟!

الصوت: الآن صدق ظني، نعم يا بشر، نعم أشتاق أن أعرفك على حقيقتك!

بشر (بهدوء): إني لا أشرب من أنهارٍ حفرها الأمراء!

الصوت: ستشرب من الحفرة التي حفرتها بنفسك.

بشر: حفرة حفرتها؟ سبحان الله؟ ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

(ينقطع الصوت، ترتفع أصوات التعذيب.)

ويحك! أين ذهبت؟ ماذا قلت؟ وماذا كنت تريد بأسئلتك؟ وأنت يا ولدي (يسمع صوت استغاثة لا يستطيع أن يتحقق منها) ويلي! ويلي! وا حزناه! اشتد البلاء فلا عزاء! واشتد الخوف فلا أمن! اصبر يا ولدي اصبر، ماذا يفعلون بك، ماذا يفعلون بكم يا أولادي؟ الله يتحفكم بالأذى، فأتحفوه بطاعته. الحمد لله أن أمك ليست معك، الحمد لله أنهم أوقفوها على الأبواب، وا حزناه يا ولدي! وا حزناه (يبكي، تتردد أصوات خشنة من المكبر فيجفف دموعه ويتماسك).

أصوات: هيا ... هيا ... يا شيخَينا.

بشر (لنفسه): شيخان!

أصوات: قولا الحق، ما شهِدَت أعينكم، ما لقف السمع، قولا الحق.

بشر (لنفسه): الحفرة؟ أوَلم يتكلم عن حفرة؟!

الصوت الأول (يبدو من وقعه أنه لشيخٍ مُسن): نعم يا مولانا! هذا ما شاهدناه بأعيننا وسمعناه.

صوت: قولا الحق ... قولا الصدق!

بشر: الحق؟ الصدق؟

الصوت الأول: عندما كان يعظ الناس في جامع بغداد ... كان يقول كلامًا مُلتويًا.

صوت: ويحض الناس على الثورة؟

الصوت الثاني: كان يحدث عن أحياءٍ موتى، ويهجو الموتى الأحياء.

صوت: وأنا أولهم بالطبع، أوَلا أحكم فيهم؟ أوَلست أمام الموتى في مقبرة، لا خليفة المسلمين، وخليفة رسول العالمين؟

الصوت الأول: ولما استنكف من الحديث والوعظ ذهبنا إليه، وقفنا على أعتاب بيته ورجوناه.

صوت: ووبخكم ... طردكم من بيته.

الصوت الثاني: واحتج بزهده، بفساد الدنيا والأحوال.

صوت: أسمعتم؟ فساد الدنيا والأحوال، وفساد الحكم والحكام!

بشر (لنفسه)**:** لا أنكر هذا، لكني خفت من الشهرة.

صوت: هذا في الظاهر ... أما ما يبطن؟

بشر: لا أبطن إلا الزهد، إلا إنكار الدنيا، ولهذا خالفت النفس، خفت عليها أن تغتر، خفت عليها من حب الشهرة، والشهرة إثم، ولو أجبتها إلى ما تشتهي من المطعم والملبس والرياسة لأصبحت مكاسًا أو شُرطيًّا.

الصوت الأول: حقًّا يا مولانا ... هذا ما قد كان من الظاهر ... أما الباطن فالله عليم به.

صوت: وأنا أيضًا أعلم به ... والشرطة كانت تتبعه ... وعيوني لم تغفل عنه.

الصوت الثاني: طبعًا يا مولاي ... الشيخ أهان العلماء، وحقر شأن الفقهاء، ورفض الطاعة للرؤساء.

الصوت الأول: من يرفض أن يعظ الناس فقد رفض الحاكم والمحكوم.

صوت: ليت الأمر اقتصر على الرفض.

الصوت الأول: نحن وقعنا في هذا الظن ... قلنا رجلٌ صالح، رجلٌ زاهد.

صوت: بل شيطان ماكرٌ، كان يحض شباب البلد على الثورة، وشباب العلماء على إشعال الفتنة ... (يسمع صوت استغاثة. الصوت الآن مميز، يتعرف بشر على قسوة ألمه وفظاعته).

الصوت الأول: وهم الآن أمام قضاة العدل.

بشر: العدل!

الصوت: اذهب أنت، هل صدقت؟

الصوت الأول: حاشا لله! أيجوز الكذب على ركن الدين وراعي الأمة والملة؟
صوت: قلت اذهب أنت ... وأنت.
الصوت الأول: أمرك ... طاعتك ... رضاك.
صوت: هل صدقت؟
بشر: صدقت؟! آه يا شيخَي السوء! الواعظ يصبح شاهد زور، سبحانك ربي غفرانك! الواعظ شاهد زور ... الواعظ شاهد زور!
صوت: الآن عرفت وصدقت.
بشر: الآن عرفت.
صوت: لا يدهشني أن تمتنع عن التصديق، اسمع يا شيخ.
بشر:

أسمع، هل أملك إلا السمع!
(يتردد صوت التعذيب)،
إن كنت ملكتَ القدرة لا تنسَ الرحمة!
(يتردد صوت التعذيب).

الصوت: ما شأنك أنت بهذا؟ نحن نؤدبه وعليه الطاعة.
بشر: حقًّا ... وأطيعوا الله.
الصوت: وأولي الأمر ... لا تنسَ أولي الأمر.
بشر: لا ... لم أنس.
الصوت: نحن دعوناك إلينا لنذكرك ...فهل تتذكر؟
بشر: أتذكر ... أذكر.
الصوت: إنك رجلٌ صالح، أتقى من عرَفَته بغداد؛ ولأنك رجلٌ صالح، من نسلف السلف الصالح، أمرنا أن يُعفى عنك ... اذهب وتذكر ... اذهب وتذكر.

(يُسمع صوتُ التعذيب في وضوح، بشر يخفي وجهه بين يديه ثم يرفع ذراعيه بالتسبيح ... وبينما يفتح باب الحجرة ويظهر سَجَّان كالمارد يهتِف بشر.)

بشر: أذكر ... أتذكر؟ آه يا بشر سقطت في كمين! سقطت في كمين!

المشد السابع

(على شاطئ دجلة — بشر الحافي متكوِّم كالطلل المتهدم ... يرتعش بردًا ورعبًا — من بعيدٍ يتردد صوت يتلو هذه الكلمات التي تسري في أجزاء المشهد من حينٍ لحين.)

صوت بعيد:

بغداد، يا حبيبتي بغداد،
هل أنت غابة؟
يلفها الوجوم والكآبة،
وتعصف الهموم والسموم والمحن؟
بغداد يا قاسية الفؤاد،
هل أنت سجن؟
يحوطه السواد والحداد،
ويفجُر الجلاد والقواد والعفن؟
بغداد، يا بغداد، يا بغداد،
مدينتي وأمي الحزينة،
مدينة السعار والجنون والضغينة.
أطلقت الذئاب والكلاب والعقارب اللعينة؛
لتنهش العباد،
وتقتل السلام والسكينة.
بغداد، يا بغداد،

هل أنت بحر؟
يموج بالخطوب والكروب والمحن،
ويغرق الربان والفيران والسفينة،
فتسقط الحقيقة
في الهوة السحيقة،
كجثةٍ غريقة،
ضائعة عديمة الثمن؟
بغداد، يا حبيبتي بغداد،
بغداد يا قاسية الفؤاد،
بغداد، يا بغداد، يا بغداد،

بشر: خرجت يا أولادي ... من سجنٍ أم نار جهنم أم من غابة؟ عصبوا عينيَّ فلم أرَ شيئًا، لكن سكبوا في أذني سعار الذئب الفاتك بالحملان، فارتج القلب وزاغ البصر وشل الوجدان، آه يا أولادي! آه يا أولادي! ما زالت آهات القتلى وصراخ القَتَلة يتبعني في كل مكان، ما زال الصوت يرِن فيخنق أنفاسي، اذكر وتذكر ... ما أنا ناسٍ، ما أنا ناسٍ.

(يبكي) آه يا ولدي المحزون القلب، يا ولدي المكسور الخاطر ... عندما رفعوا الغطاء عن عيني كنت أقف أمام الباب الكالح، اقترب مني حارس صغير تشبث بخرقتي ولثم يدي وقال: باركني يا شيخ! يا أتقى رجل في بغداد! امسح بيديك على رأسي. مسحت على رأسه ودعوت له، صاح كمن أخذته النشوة: زدني من هذا الكاس ... ادع لأهلي وعيالي، ادع الله يقيني شر الجِنة والناس، وانصحني يا شيخ. قلت له وأنا أمر بيدي على رأسه وصدره: يسترها الله عليهم وعليك. بكى وقال: زدني يا شيخ، قلت: اجتنب الناس ... تلفت حوله ثم ابتعد وهمس: أنت تقول اجتنب الناس؟ لمَ، لمَ تفعل هذا يا شيخ؟ قدر يا ولدي، أن أترك نور المحراب وأدخل من هذا الباب. تلبد وجهه ورفع قبضته قبل أن يرجع إلى مكان حراسته: اخرج منه يا شيخ! ... اخرج منه يا شيخ!

لم أكد أسير خطواتٍ وأنا أتعثر في خوف الليل الدامس حتى فاجأتني يد لمست كتفي وشدت ذراعي، ونفذ بأذني صوت كالسهم المارق: اخرج منه! اخرج منه! نظرت ورائي فماذا وجدت؟

(ينهض من الحاضرين شابٌّ قصير مضحك الخلقة كأنه مهرج أو مختل العقل.)

المجنون: وجدت المجنون ... أشهر مجنون في بغداد!

بشر: قلت له: من؟ من أنت؟
المجنون: أولم تسمع؟ معذور والله، أعرف أعرف.
بشر: ماذا تعرف؟
المجنون: أعرف ما فعلوا بك، لست بأولهم، ما أنت بآخر واحد.
بشر: كنت هناك؟
المجنون:

كنت هناك؟ ماذا ينتفعون بمجنونٍ مثلي؟
أشهر مجنون في بغداد ... ماذا يا شيخ؟

بشر: حقًّا حقًّا ... كيف عرفت؟
المجنون: عندي حاسة شم.
بشر: حاسة شم؟
المجنون: هل لي في ذلك حيلة؟ كلب صوَّره القادر في صورة إنسان ... ولهذا فهو يشم بأذنيه صوت الزلزال، قبل وقوع الزلزال.
بشر: لا أفهم يا ولدي.
المجنون:

يا أتقى رجل في بغداد! يا شيخي الصالح!
غدًا سوف تُخرج أثقالها،
غدًا ستزلزل زلزالها.

بشر: وقفز قفزةً جعلت رأسه إلى أسفل وساقيه وقدميه إلى أعلى، وانطلق يزحف على يديه وهو يكرر:

ما أنت بأول واحد،
ما أنت بآخر واحد،
يا بشر الزاهد،
يا بشر العابد،
غدًا ستزلزل زلزالها،
غدًا سوف تخرج أثقالها،

اخرج،
اخرج من هذا الباب.

ومضى يحجل ككلبٍ أجرب، ويثب على الأرض كجرادةٍ مبتورة الجناح، لم أكد أفيق قليلًا حتى سمعت الصوت من بعيد: اخرج ... أخرج ... وكأن سربًا من النحل يطن في أذني مختلطًا بنباح كلب مسعور: اخرج أسرع ... أسرع اخرج ... لاهث الأنفاس مضيت ... صدري يعلو وينحط كحجرٍ مثقوب تصفر فيه الريح، هل كنت أمشي خفيفًا على الهواء، أم أسقط في لجة ماء وأقاوم وأقاوم كي لا أغرق؟ لا أدري يا أولادي، لكني وجدت شعاعًا أرسله الله، مد كفه النورانية فسحبني إلى هذا المكان، نظرت بعيدًا فوجدت مراكب وقوارب وأشرعة ترفرف كأجنحة الحمام، رفعت يدي إلى الأنجم ودعوت: حمدًا يا رب! حمدًا يا رب، هذا شاطئ دجلة، فلْأتوضأ وأصلِّ ولأتطهر من ذنبي. كان البرد شديدًا كرصاصٍ ينفذ في اللحم ويخترق العظم. والجوع الكافر يا أولادي، يا من لا تدركه الأبصار، يا ثاني اثنين بجوف الغار، بارك سفري بارك زادي ومعادي، وارزقني من رزق النحل أو الطير الرائح والغادي، هبني أرضى بتراب الأرض وبالمر، يا من لا تدركه الأبصار ... تردد الصوت الساخر: اخرج! أسرع! أسرع! اخرج! فرفعت يدي إليه: بارك خطواتي ... أخرجني من هذي الدار ... ونزلت إلى الماء فتطهرت، ودعوت لقومي بالستر، ودعوت لولدي أن يحميه من القهر، كانت الأصوات ما تزال تهمس: اخرج، اخرج. وصوت آخر ينساب من النهر.

صوت:

بغداد، يا بغداد، يا بغداد،
بغداد، يا حبيبتي بغداد،
بغداد يا قاسية الفؤاد،
هل أنت غابة؟
هل أنت سجن؟
هل أنت بحر؟

نمت فلم أدرِ بشيء، وصحوت على ضوء الفجر، فوجدت أمامي سمكًا مشويًّا وقليلًا من خبز، ألقمت الوحش الكاسر، وحمدت الله على الستر، ونهضت على قدمي أصلي الفجر، لم أكد أرفع يدي بالتكبير حتى وجدته أمامي.

(يقف رجلٌ على قدميه ويتقدم من الخلف، يبتسم ويقول.)

الصياد: أنا الصياد، رأيت شبحه يصلي فاقتربت منه، انتظرت حتى سلم، وقلت: هل نمت هنا يا شيخ؟

بشر: أجل يا ولدي ... وأنت؟

الصياد: دجلة هي داري يا شيخ، أصحو فيها وأنام.

بشر: صيادٌ أنت؟ يرزقك الله.

الصياد: الرزق شحيح يا شيخ.

شبر: حاشا لله ... أوَلم تشبعني من زادك؟

الصياد: هو رزقك والله، يبدو أنك رجلٌ صالح ... أما رزقي ...

بشر: احمَدْه واشكر فضله ... وازهد فيما في أيدي الناس.

الصياد: أفعل يا شيخ، أفعل، لكن والله لقد حيرني الأمر ...

بشر: لم يا ولدي؟

الصياد: ساء الحال، كَسَدَ الحال، منذ شهورٍ وأنا ألقي الشبكة ...

بشر: تخرج سمكًا.

الصياد: بل تخرج ... (يتلفت مذعورًا حوله ...) دعنا من هذا.

بشر: قل يا ولدي.

الصياد: أخشى من زلة شفتي ولساني، أخشى أن ألقي الشبكة ... تلتف الشبكة حولي وأكون السمكة.

بشر: أفصح يا ولدي.

الصياد (يحرك شفتيه، ينطلق الصوت الذي عرفناه في البداية):

احرص ألا تتكلم،
احرص ألا تسمع،
احرص ألا تنظر،
احرص ألا تلمس،
قف!
وتعلق في حبل الصمت المبرم.
الصمت! الصمت!

بشر: هل تخشاني يا ولدي؟

الصياد: لا أدري، يبدو من وجهك أنك رجلٌ طيب.
بشر: وفقيرٌ مثلك.
الصياد: وولي من أحباب الله؟
بشر: حاشا لله ... بل عبد زاهد.
الصياد: ما معنى الزهد؟
بشر: ألا تستعبدَك الدنيا.
الصياد (ضاحكًا)**:** لا ... لن تفعل ... وإذا زهدت فيها؟
بشر: أحبك الله.
الصياد: والناس؟
بشر: سيحبونك إن زهدت فيما في أيديهم.
الصياد: فعلت يا شيخ ... لكن في دجلة لم أستطع الزهد!
بشر: يرزقك الله برزق عيالك.
الصياد: قل لي من أنت؟ نفسي تخبرني أنك مشهور.
بشر: معاذ الله ... سمَّوني بِشرًّا.
الصياد (ينظر إلى قدميه)**:** بشر الحافي؟
بشر: أسمعت باسمي!
الصياد: ما أطهر اسمك! ما أشهره في بغداد! يلهج باسمك كل الفقراء، ما أسعد حظي الليلة!
بشر: كنت الآن تشكو من حظك.
الصياد: الآن أستطيع أن أخبرك (يتلفت حوله، يطمئن، يجلس بجانبه جلسة الصديق للصديق)، هل تعلم؟ (يتلفت حوله).
بشر: لا يسمعنا إلا الموج ورمل الشط.
الصياد: حتى دجلة يا شيخ.
بشر: دجلة؟ ماذا تقصد؟
الصياد: لم تنجُ من الشر الداهم في البر وفي البحر.
بشر: الماء طَهور يا ولدي.
الصياد: معذرة يا شيخي الزاهد، أنا رجلٌ عقلي ضيق، لكن هل تتصور؟ من يتطهر منه الناس تدنَّس.
بشر: هل فتك السُّم بسمك البحر؟

الصياد: جثث الموتى يا شيخ ... ألقى الشبكة منذ ليالي لا تمسك سمكًا.
بشر: حوتًا أو وحشًا؟
الصياد: أفظع أفظع، تتلقف بشرًا!
بشر: تتلقف بشرًا؟ المؤمن لا يقتل نفسه.
الصياد: يقتله المؤمن مثله ... انظر (يمسكه من يده ليأخذه معه).
الصياد: أتخاف ونورك يسعى بين يديك؟
بشر: خائف ... خائف ...
الصياد: أيخاف الموتَ سوى الموتى؟ عِش معي يومين وسوف تتعودين عليه.
بشر: أي شيء يا ولدي؟
الصياد: على رزقي ورزق عيالي، انظر ... انظر ... وادعُ لصياد اللؤلؤ والجوهر.

(يكون قد وصل إلى كومة عشب غطى بها الصياد جثة غريق، الجثة ما زالت متماسكة، لا يكاد الشيخ ينظر إليها حتى يصيح.)

بشر: ولدي ... ولدي!
الصياد: هل تعرفه يا شيخ؟
بشر: فعلوها يا ولدي!
الصياد: إنهم يفعلونها كل ليلة، إن لم يكن في هذا الموضع ففي موضعٍ آخر.
بشر (يتلمس رأس الغريق، ويمر عليه بيديه، ويبكي في صمت)**:** ولدي ... ولدي!
الصياد: ولدك؟ ... نسمع أنك ناسك.
بشر: فقد أباه أمس، وها هو يفقد نفسه.
الصياد: فهمت، فهمت، مات بيأسه.
بشر: تقول مات؟! قُتل يا ولدي ... قتل ... ماذا تفعل أمك؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر في عينيها؟ ... ماذا أفعل؟ (يبكي وينهض وهو مصمم).
الصياد: وله أم؟ ... يرعاها الله ويمنحها الصبر.

(بشر يجري مذعورًا ... يناديه الصياد.)

الصياد: يا شيخ! يا شيخ! ماذا يفعل؟ ها هو يجري ... عجبًا والله ... ماذا يفعل؟ (يضع العشب على الغريق ويضرب كفًّا بكف) لست غريقا وحدك ... يبدو الكل غريقًا مثلك.

(يسمع من بعيد ولولة امرأة تندب حظها: ولدي ... ولدي ... ولدي ... بينما تتردد أصوات مختلطة نميز منها القليل):

اخرج! اخرج من هذا الباب ... اخرج، اخرج من هذا الباب.
بغداد يا قاسية الفؤاد،
بغداد يا قاسية الفؤاد،
بغداد يا حبيبتي بغداد.

المشهد الثامن

صوت:

ونزلنا نحو السوق أنا والشيخ.
كان الإنسان الأفعى يجهد
أن يلتف على الإنسان الثعلب.
نزل السوق الكلب؛
كي يفقأ عين الإنسان الثعلب،
ويدوس دماغ الإنسان الأفعى.
واهتز السوق بخطوات الإنسان الفهد،
قد جاء ليبقر بطن الإنسان الكلب،
ويمص نخاع الإنسان الثعلب.
قل لي يا شيخ:
أين الإنسان ... الإنسان؟
(يصحو بشر كأنما أدركته غفوة، يتلفت حوله في خوف، يمسح وجهه وعينيه ويتمتم، يفتح فمه فنسمع صوتًا لا ندري هل هو منه أم من هاتفٍ بعيد.)
بغداد، يا بغداد، يا مدينتي الحزينة،
هل أنت غابة؟
أطلقت الذئاب والكلاب والعقارب اللعينة.

بشر: ظللت أجري وأجري حتى غابت أنفاسي، استندت إلى باب الشام قليلًا قبل أن أمر في طريقي على السوق. هل قلت: طريقي؟ لكنني لم أكن أعرف أي طريق، وكأن صوت المجنون ما زال يتردد في سمعي: اخرج! اخرج من هذا الباب ... وقبل أن أواصل السير ...

صوت رجل: أو الجري؟! (تسمع ضحكته وحده).

بشر: نعم يا ولدي، لا أنكر هذا. كانت المدينة كالمسخ العاري تنزع عنها غطاء الليل وتفتح عينيها للفجر، بدت في عيني وحشًا أسود يتمطى في الصبح، ويدعو إليه خدمه وحشمه وأعوانه، ومضيت إلى السوق الذي بدأ كذلك يتمطى ويحتشد ليومه الجديد، أجساد ممددة على الأرض، عارية أو شبه عارية في خلق وأطمار، لأطفالٍ وصبية عراة وشحاذين ومجذومين وأصحاب عاهات، بدءوا كذلك يستجيبون لسعار الشهوة وجنون اللحم وعضة الجوع، وها هم يتناثرون في أرجاء السوق كالهوام، أو يلتصقون بأبواب الدكاكين كالحشرات، أندسُّ بينهم وأغرق في زحامهم، يا ربي! هل هذا هو ابن آدم الذي كرمته وعلمته الأسماء؟ وتتجاوب الأصوات والأصداء والنداءات والضحكات والصيحات، وتفتح أبواب الدكاكين والخانات والمطاعم والمخابز والحانات والمحلات، ويتعالى الصياح وتزداد الضوضاء ويثور الغبار وتتوافد القطط والكلاب والحمير والبغال. كم مشيت في هذا السوق وأنا أغمض عيني وأتعثر في ظلي وأهتدي ببصيص النور الذي قذفه الله في قلبي، ثم أعود إلى داري كأني ما وطِئَت قدماي أرضه، ولا شمَّت عينِي رائحة غباره، أعود وأدفن نفسي في محرابي وأتلذذ بطعام ربي وشرابه، حتى يأتي الليل فأتهجد وأواصل بكائي، لكني فتحت العين على العالم، فتحت العين رأيت وخفت. يا ربي حمدًا لك، هل أعطيتني عينين أم بلورتين تنفذان وراء اللحم والعظم؟ ها هو ذا إنسان يتمشى في السوق، لا لا، ليس بإنسان؛ إني ألمح فيه الأفعى، تزحف تتلوى، تجهد أن تلتف على الإنسان الكركي، والإنسان الثعلب يمشي بينهما، عجبًا! زورُ الإنسان الكركي في فك الإنسان الثعلب، ونباح يعلو وعواء، نزل السوق الإنسان الكلب؛ كي يفقأ عين الإنسان الثعلب، ويدوس دماغ الإنسان الأفعى، ثم تدور الأرض وتهتز السوق على خطوات الإنسان الفهد، قد جاء ليبقر بطن الإنسان الكلب، ويمص نخاع الإنسان الثعلب، ربي! هل أنا في غابة؟ ذهب الأسد الفاتك، جاءت أُسْد أخرى أفتَك، لمَ لمْ تتركني أغمض عيني لأرى نورك وهداياك، وحدائق لطفك وعطاياك؟ لمَ لمْ تتركني في جنة ذاتي، آوي للظل وأشرب من خمر الطاعة والذل؟ ربي! إني خائف! أخرجت الجنة من صدري ودخلت الغابة، الأفعى تلتف عليَّ، الثعلب يفتح فكه، والكلب يزمجر ويعض اللحم، والفهد المزهو توثب ليدوس عليَّ، والذئب هنالك قابع، يتربص بالحمل الوادع، الأفعى تزحف والثعلب يزحف، والذئب تلصَّص والكلب تربص، والإنسان تنكر خلف قناع، أبحث عنه فلا أبصر إلا الأفعى والذئب. أبحث عنه فلا أبصر غير الثعلب والكلب. أبحث عنه فلا أبصر غير الحية والعقرب. ماذا تنظر يا بشر وماذا ترجو؟

تعدو قدماي وأتعثر، أنهض أجري أتعثر، أتلفت خلفي: الأفعى تزحف، والثعلب يزحف، والذئب مع الكلب تحالف كي يثب عليَّ، أجري أجري لا أتوقف، أجري أجري لا أتوقف، حتى أصل إلى باب الشام وأتعثر. تمتد يدٌ بيضاء وأرفع رأسي، فأراه على بغلته الشهباء يسألني.

شيخ التجار:

جاري الطيب؟
أتأمله، أذكر سِحنتَه، هذا الوجه رأيته.

بشر: شيخ التجار؟
شيخ التجار: يا أتقى رجل في بغداد، هل جئت تزور السوق؟
بشر: بل أهرب من فك الغابة.
شيخ التجار: الغابة؟ يا لك من إنسانٍ طيب!
بشر: هل بقي بهذا السوق الكافر إنسان؟
شيخ التجار: السوق بخير، بغداد بخير، والعالم ما زال بخير.
بشر: وأنت؟ هل أنت أمير الغابة؟
شيخ التجار: أمير الغابة؟ يا لدعاباتك يا شيخ! هل هي ريح الفجر؟ أم خمر السُّكر؟ شرفنا يا شيخ؛ كنت مشوقًا للقاك.
بشر: ألم نلتقِ من قبل؟
شيخ التجار: جيران ... لكن لا نتزاور ... لا يعرف أحدنا الآخر.
بشر: بل تعرفني.
شيخ التجار: أسمع عنك كثيرًا ... أهتف: هذا جاري. أتمنى أن ألقاك وأحظى برضاك.
بشر: لكنك كنت تراقبني، تتلصَّص من شرفتك عليَّ
شيخ التجار: معاذ الله ... بل أخطب ودك، أطلب بركتك وحبك.
بشر: قلت لك كنت تتلصص عليَّ، تبِعتني وأنا في طريقي إلى تلك القرية.
شيخ التجار: أية قرية؟
بشر: القرية التي دمرها الزلزال.
شيخ التجار: زلزال وقرية؟ ماذا تقصد يا شيخ؟
بشر: والرجل الذي مات بين أيدينا؟ هل نسيته؟
شيخ التجار: ورجلٌ مات أيضًا؟
بشر: وساعدتني على دفنه وأهلتَ عليه التراب.

شيخ التجار: وجريمة تتهمني بها أيضًا؟ ما بالك يا شيخ؟
بشر: ألم تعِد أن تنفق عليها مالك؟ أين وعدك؟ ألم يكن هذا هو مهر دخولك في طريقتنا؟
شيخ التجار: مهر وطريقة ... (يضحك).
بشر: لا تنكر، لقد زرناها معًا.
شيخ التجار: رجعنا للقرية؟
بشر: ووعدت ولم تَبَرَّ بوعدك.
شيخ التجار: يظهر أنك لم تشرب من خمر الوجد؛ بل من خمر الحانة أو قاع الجُب.
بشر: اخرس يا ذئب!
شيخ التجار: بل تخرس أنت! (يلسعه بالسوط على وجهه).
بشر: أموالك سُحت وحرام، وعهود خائنة أيضًا؟
شيخ التجار: قلت: اخرس! اخرس يا كلب ... (يلسعه أخرى بالسوط ويمضي لحاله وهو يردد: كلب ... كلب ... كلب).
بشر (يمسح وجهه وعينيه)**:** يا ربي! هذا عبدك ذئب في صورة إنسان، ذئب خوَّان، ذئب وأمير ذئاب، والمال حرام، والمال حرام، يا ربي! أين الإنسان؟ أين الإنسان؟

(يسرع خارجًا من الباب الكبير، يتلفت وراءه قبل أن يطلق ساقيه للريح. يتردد صوت.)

صوت:

أين الإنسان؟
الإنسان، الإنسان عبر
من أعوام.
ومضى لم يعرفه بشر.

صوت:

حفر الحصباء ونام،
وتغطى بالآلام.

المشهد التاسع

بشر: مضيت لم يعرفني بَشَر، لم تَبكِني عين بَشَر. الغابة خلفي تدمدم، والصوت ورائي يهمهم: أين الإنسان الإنسان؟ لاحت الأسوار غير بعيد، ثم اقتربت وكادت تجثم على صدري، كالحة سوداء كأنها وحوش رابضة، والأبراج نم فوقها مآذن تطلق صوتًا لا يسمعه غيري: اخرج! اخرج من هذا الباب، اترك أهوال الغاب لسكان الغاب، اخرج، اخرج من هذا الباب ... وأندفع لكي أخرج منه فيدعوني الصوت:

الصوت: قف يا شيخ، توقف!

بشر: أتوقف؟ الغابة نحوي تزحف، الذئب الجائع والعقرب، والحية تزحف.

الصوت: أعرف! أعرف!

بشر: وتقول توقف؟

الصوت: أجل يا بشر؟

بشر: أتلفت، أنظر خلفي حولي وأمامي، لا يبدو إلا السور الكالح والأبواب المتجهمة الوجه تلح عليَّ: اخرج، اخرج، وإذا بي ألمح ظل سحابة، ترتفع تحلق، ثم تميل وتهبط، كانت خضراء كنسرٍ أخضر رفرف بجناحيه وحط على الأرض، برزت منها نخلته الخضراء تُجلِّلها هالة نور أخضر، صحت وكبرت.

بشر: مولاي الخضر؟

الخضر: ستر الله عليك، من أين؟

بشر: من هذا البلد الظالم أهلُه، أخرج من هذا الباب، أترك أُسْدًا وأفاعي، وصراع ذئاب وكلاب.

الخضر: وإلى أين؟
بشر:

لا أعرف يا مولاي، الصوت يحث خُطاي:
اخرج من هذا الباب!
اخرج من هذا الباب!
ودعِ الغابَ لسُكان الغاب.
مولاي الخضر،
يا من تحمي فقراء القلب،
وتسقيهم من خمر الحب.
يا من أمك ولدتك ببطن مغارة،
أرشدني خذ بيدي،
وأرسل رمزًا وإشارة.

الخضر:

أوَلم أرسلها يا بشر؟
أو لم أطلعْك على السِّر؟

بشر: أيُّ سر يا مولاي، وأي رمز؟
الخضر: القرية يا بشر، والشيخ الصالح فيها.
بشر: شيخ التجار؟
الخضر: المحتضر الراقد بين الأنقاض.
بشر: من أطعمتُ، ومن فضل الله سقيت؟
الخضر: وتحت الأنقاض دفنت.
بشر: من هذا يا مولاي؟
الخضر:

هذا تفسير الرؤيا،
هذا هو معنى الرمز،
وسر اللغز.

بشر:

الرؤيا ... الرمز، وسر اللغز؟
قل لي بالله عليك،
ما هذا السر؟

الخضر: لا أحد سواكَ ... عرفتَ السر؟
بشر: أنا يا مولاي؟
الخضر: الشيخ الصالح أنت ... والقرية هي بغداد.
بشر: وأموت وأدفن بيدي؟
الخضر: كما مات ألوف وألوف، حين أتاها الزلزال.
بشر:

وجرى المجنون ورائي،
طاردني بالصوت الناعق،
لاحقني كَوَباء.

الخضر:

اخرج! اخرج! غدًا سوف تخرج أثقالها.
غدًا ستزلزل زلزالها.

(يسمع صوت المجنون ... يتردد من بعيد.)

بشر: وسمعت دعائي يا خضر؟
الخضر: والرؤيا صدقت يا بشر.
بشر: والغابة ... والسجن الكالح والقهر ... والجثث الغرقى كل مساء عند النهر.
الخضر: الرؤيا صدقت يا بشر.
بشر:

وأنا العاجز أتقلب فوق الجمر.
يسلمني الشر إلى الشر.

أصرخ بالحاكم والمحكوم:
الطهر الطهر!
في السوق وفي الشارع فُجر.
في الكوخ وفي القصر العُهر.
حتى النهر الظاهر يتلوث،
حتى النهر!
والصوت الضائع في الصمت الفاجع
تحمله الريح إلى البحر،
ويلقيه البحر إلى الصخر.
لا أملك إلا عجزي المر،
ودموعي الحرَّى في الليل.
لا أملك إلا قلب الطفل
في مهد الخشية والذل.
أتذكر قولك: قم يا بشر وأبشر،
قم يا بشر!
ها أنا قمت وسرت،
فتحت العين رأيت فجعت،
العالم كان هو الغابة،
والعالم كان هو الموت،
والإنسان، الإنسان عبر.
ودعوتُ، دعوت:
يا رب! أنا قطرة حب في كأسك،
ظل شعاع من شمسك،
فلماذا تبعد كأسك عني؟
تحجب عني شمسك؟
يا ربي! عينك سترتني عن عين الخسة.
والأرض بغيٌّ دنِسة.

يزجرني الصوت الآمر:
من سيطهرها غيرك أنت وصحبك؟
من يطرق باب الفردوس
وينقذ هذا الكوكب،
ينفض عنه بؤسه
غيرك أنت وصحبك؟!
أهتف: يا ربي!
ينقذه جيل آتٍ،
يولد في زمنٍ آتٍ،
يتذوق من كأسي قطرة،
يتخذ حياتي ومماتي عِبرة،
فيخيف الخوف،
يميت الموت،
وينبت من قلب الرمم
الأشجارَ الشامخة الحرة.
جيل يصرع ليل الغابة والشر،
ولا يغرق غرق الجثة في النهر.
أما أنا فعجزت،
أما أنا فعجزت ... (يبكي).

الخضر (يباركه ويمسح على رأسه):

قل: أنت خرجت،
قل: أنت خرجت.
يخرج الحرُّ من الدنيا عزيزًا
قبل أن يخرج منها.
هيا يا بشر!
هيا يا بشر!

(بشر يتلفَّت حوله فيجد أن الرؤيا قد اختفت، يسمع صوت الخضر يناديه: هيا يا بشر ... هيا يا بشر ... فيطلق صيحته.)

بشر:

مولاي الخضر ... إلى أين؟
مولاي الخضر ... إلى أين؟ (تتردد أصوات).

صوت: اخرج من هذا الباب.
صوت: من الصحراء إلى الصحراء.
صوت: من الرمضاء إلى الرمضاء.
صوت: من قلب الغابة والسجن.
صوت (من أعلى)**:** إلى السجن!
بشر: وجريت جريت.
صوت (بجانبه)**:**

حتى جئت إلينا
وعرفنا السر.

صوت (من أعلى)**:**

قلت: إلى السجن!
إلى السجن!

(تُسمع قعقعة سلاح، بشر يرتبك، ويرتبك معه الحاضرون، تناديه أصوات تلح عليه.)

صوت: بل يخرج من هذا الأسر.
صوت:

هيا يا بشر.
أسرع يا بشر.

(تزداد الجلبة والضوضاء، وتختلط بأصوات البكاء والصراخ ... يفلت بشر مسرعًا إلى الصحراء.)

صوت:

بأمرٍ من مولانا العادل
آخذك إلى السجن ... (يقبض حارس على حارسٍ آخر) ثم على غيره.

صوت:

وأنت.
وأنت.
وأنت.

(ينجاب غبار الضجيج والهرج والمرج عن المرأة وطفلها وبعض الزوار الذين جاءوا في البداية إلى نقطة الحراسة.)

(نسمع بعد الهدوء المفاجئ أصوات بعضهم تناجي شبح بِشر الذي ابتعد في الظلام.)

رجل: باركنا يا شيخ.
المرأة:

ادع لزوجي وعيالي،
لا تحرمنا من بركاتك.

رجل: واذكرنا في صلواتك.
رجل:

واذكر بغداد،
أعنها أن تتعلم
من سر حياتك ومماتك.
(ينطلق صوت غناء بعيد يردد بعض الكلمات التي سمعناها في مشهدٍ سابق.)
بغداد، يا بغداد، يا بغداد،
هل أنت غابة؟
بغداد يا قاسية الفؤاد.

هل أنت سجن؟
بغداد، يا حبيبتي بغداد،
مدينتي وأمي الحزينة،
هل تذكرين أنني خرجت
لأجل أن يسودَكِ السلام والسكينة؟
هل تذكرين أنني خرجت؟
هل تذكرين أنني عبرت؟

صوت:

الإنسان، الإنسان عبر،
حفر الحصباء ونام،
وتغطى بالآلام.

صوت: أين الإنسان ... الإنسان؟
صوت:

اصبر ... اصبر ... سيهل علينا يومًا ركبُه،
سيهل علينا يومًا ركبُه.

هنـــداوي